# العودة إلى شواطئ الحقيقة

مازن الرفاعي

مجموعة قصصية

للنشر والتوزيع

# العودة إلى شواطئ الحقيقة

مازن رفاعي

# العودة

# إلى شواطئ الحقيقة

مجموعة قصصيّة

**الكتاب: العودة إلى شواطئ الحقيقة – مجموعة قصصيّة.**

**تأليف: مازن رفاعي.**

**التنفيذ والإخراج الفني: أندره عيد قره**

محفوظة جميع الحقوق للمؤلف

**الطبعة الثّانية**

**٢٠١٢**

دار تالة للنشر والتوزيع

**dartala2008@yahoo.com**

**دمشق**

**هاتف: 0933887211**

# الإهداء...

إلى كل من يقرأ ويفهم
إلى كل مغترب لاكته الغربة
إلى كل من عرف الذات الإلهية من داخل نفسه
إلى من كانوا سبباً في وجودي
إلى من اخترتهم ليكونوا أصدقائي
إلى من اختاروني لأكون عدوهم
إلى جميع من ساهم في إصدار هذه المجموعة
.... أهدي هذه الأفكار.

مازن

# العودة إلى شواطئ الحقيقة..

سكون تام في الغرفة، تقطعه بين الفينة والأخرى ضجة عقربي الساعة الجدارية وهما يلتهما الوقت. كل شيء على حاله مذ ذهب للنوم مساء الأمس، المكتب بفوضويته، أوراقه متناثرة، أقلام مبعثرة، بقايا الشاي في الفنجان، علب الأدوية، الكمبيوتر أعز أصدقائه، الهاتف مرافقه الدائم، وعلبة المناديل الورقيّة الفارغة. جميعهم يجلسون بهدوء كما تركهم في الليلة الماضية قبل أن يخلد إلى النوم متعباً.

جسده لا يزال ممدداً على الفراش، ولكنه استيقظ كالعادة ليستقبل أول خيوط الفجر، وخرج بهدوء من الغرفة ونظراته تداعب جسد زوجته الممدد على السرير، فجأة وقع نظره على الطرف الآخر من السرير، صعقه المشهد... هناك من يرقد مكانه!

فرك عينيه بقوة، ونظر بتمعن... نعم إنه جسد شخص ما، اقترب بوجل ليتمعن في وجه هذا الزائر الغريب الذي اقتحم عرينه، ونامَ قرير العين في مكانه، وبجانب زوجته! إنه هو... نعم إنه هو!

ولكن ماذا يفعل هو هنا... وهناك؟.

ولماذا يرقد جسده الممدد هناك وحيداً منبوذاً؟

الخوف شلَّ حركته، والذهول سيطر عليه لدقائق، ماذا حدث؟

اقترب ناظراً متمعناً فرأى وجهه يبتسم له موتاً، أنصت بفضول إلى أصوات تنفّسه، فلم يستطع أن يسمعها، ولكنه استطاع أن يرى هالة برتقالية من النور تحيط بجسده تتحول إلى زرقاء حين تصل أطرافه، اللون الأزرق يزحف كالحيّة الرقطاء إلى بقية جسده، حدَّث نفسه بمرارة وحزن هل أتاني الموت بغتةً؟

لحظات مرت، قبل أن يفكر في الحقيقة المرة، هل انفصلت روحه عن جسده؟ يبدو أن هذا ما حدث! فها هو يحلق في هذه الغرفة يراقب بقاياه، اجتاحه الرعب، وجمدت العروق في روحه، وجفت الدموع في عينيه، وصرخ بكل قوته فلم يسمع صراخه.

لأول مرة في حياته يموت، رغم أن الموت زاره مداعباً أحلامه قبل أيام، وكان زائراً غير مرغوب فيه وصفه حينئذ بالكابوس.

سقط "عدنان" في بئر عميقة، كان الظلام دامساً، ولكنه مع هذا كان يرى كل شيء، تفاصيل حياته تعرض أمامه كشريط سينمائي، يبدأ بالصرخة الأولى وينتهي بالأخيرة. لقد خرج من الزمان، وترك المكان، وهو الآن في طريق الهجرة إلى عالمٍ مجهول.

تنبّه من رحلته على صوت زوجته وهي تناديه بجزع: عدنان... عدنان...! عاد إليها رآها وهي تهز جسده البارد، أراد أن يقول لها إنه هنا، صرخ... ولكنها لم تسمعه، أشفق عليها فقد كانت على حافة الانهيار، يبدو أنها أدركت المصيبة، رآها تتّجه للهاتف وهي تصرخ ملتاعة، مات... مات... مات.

كم هو قاسٍ الموت هنا في هذه الغربة، المرء هنا يموت مرتين، مرة لفراق الوطن، ومرة لفراق الجسد. ورغم أننا نموت كل يوم، فان الموت الأخير هو لحظة صدق نواجه فيها الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة.

اتصلت زوجته بأصدقائه وبالإسعاف وجلست تبكيه بكاءً مراً. جلس بجانبها ليشاركها مصابها وأحزانها، أراد أن يواسيها ربت على كتفها، مر كنسمة أمامها حركت خصلات شعرها لكنها لم تشعر به، كانت في عالم آخر، عالم الخوف والضياع، كم هو حزين لمصابها!

جسده لا يزال ممدداً على الفراش، والطبيب يحاول إعادته إلى جسده، الطبيب يتحدث لزوجته الملتاعة، تنظر إلى الطبيب بذهول ويبدو أنها لم تفهم إلا ما يجب فهمه، لقد انتهى فصل في ملهاة الحياة لقد رحل زوجها... يسمع نداءَ وبكاءَ الذين تجمعوا حول جسده ينتظرون أعجوبة أو معجزة لن تتحقق، يصرخ بهم: توقفوا عن البكاء، بكاؤكم يعذبني ،اتركوني أرحل سعيداً.

كم كان الموت بعيداً عنه منذ أيام، وكم كان هذا الجسد غالياً، سخر كل الطاقات والإمكانيات لخدمته وتحقيق رغباته، وها هي الروح اليوم تلقنه درساً لن ينساه، فقد هاجرت على أنغام معزوفات البكاء، كما تهاجر الرياح عازفة أنغام الطبيعة.

القلب ملك المشاعر والأحاسيس تحوَّل إلى حاكمٍ ظالمٍ سجن الجميع، وأعدم أمواج الفكر، وأعلن العصيان، الأطراف استوردت البرودة، الجفون أسدلت ستائرها، وأنوار العيون انطفأت، اللسان انعقد فلم يطلق آهةً...

الآه أغنية تطرب لها الأسماع..

الآه صرخة معذب تنطلق فتهز جدران سجنه..

الآه معزوفة جنائزية يحررها الجسد كآخر وصاياه..

آهته تمردت اليوم وانطلقت فقتلت غدراً..

كمية الهواء الأخيرة التي دخلت الجسد، لم تستطع الخروج، اعتقلت وسكنت كما يسكن الظلم في مدن الملح،

لقد انتهت الملهاة، وعليه الآن وداع العمر ووداع الجسد ووداع كل ما يمت إليهما بصلة.

في غرفته لا يزال كل شيء على حاله، المكتب بفوضويته ترتاح عليه الأشياء، أوراق حساباته المتناثرة، أقلام مبعثرة، وفنجان الشاي ينتظر من يكمل ارتشاف ما فيه، الأدوية تنتظر موعد زفها إلى الجسد، الكمبيوتر ينتظر لمسات حانية على مفاتيحه، وبجانبه علبة المناديل الورقيّة الفارغة منذ أسبوع، الهاتف سجل اتصالات لم يرد عليها أحد، ومازال يخزن رسائل لن يستلمها أبداً. كل تلك الأشياء تجلس هادئة كما تركها في الليلة الماضية قبل أن يخلد متعباً إلى النوم. لم يمت شيء معه!

بعد أن تأكد من أن الروح خلعت ثياب الجسد، وتركته لرحلة فنائه، يعاود عدنان رحلته في النفق مهاجراً للأبدية، يمر بتفاصيل حياته، وجوه نسيها، ومواقف لا يتذكرها، أشخاص ساعدهم في حياته يسهلون له المرور، وآخرون يجعلون طريقه صعبةً، وأخيراً يدخل مملكة الألوان، وبدل نور الشمس الواحد، يرى الآن بلايين الألوان والأرواح، تمتزج وتلتحم، يتابع هجرته متحداً مع الأرواح الهائمة، يذوب معها، ويفقد كينونته، ولا يدري من هو؟ أين هو؟ أين هي الألوان التي التحم بها؟

من بعيد يرى نوراً وناراً، يسمع جعجعة وضجة مصدرها ألوان متراقصة بعيدة، يحاول أن يقترب إليها فيصده حاجز لا يمكن تجاوزه، يتساءل:

أهي الجنة أم الجحيم؟
أأنا ذاهب إلى الجنة أم إلى الجحيم؟
إلى النور أم إلى النار؟
من سأقابل هناك من المعارف والأصدقاء ؟
هل سأرى أبي هناك؟

أمي، جاري، صديقي، حبيبتي، تشي غيفارا، جون لينون، فريد الأطرش؟

يهبط عدنان في أولى محطات رحلته إلى قاعة تضم أبواباً لملايين أنفاق العبور، وعلى كل مدخل كتب: أَدخِل بصمتك الروحية هنا، ويعلم أن هذه هي ردهة الاستقبال والتشريفات البرزخية، يقترب بحذر من أحد الأبوابٍ، فترتسم شيفرة ميزان حسابه الختامي على روحه أرقاماً وحروفاً، ويفتح له الباب بعد أن تمت الموافقة على منحه تصريح الدخول.

يدخل الصالون الكبير ومن بين الخيارات التي تتوارد في مخيلته (أهل – أقرباء – أصدقاء – معارف – غرباء) يختار "خيار أصدقاء"، وما هي إلا لحظات حتى ينتقل إلى المحطة التالية يجد نفسه في خيمة كبيرة يجتمع ضمنها (أبو محمد – أبو حسين – أبو حيدر – أبو الياس – أم عبدو...) يرحب الجميع به ويمنحونه مكاناً بينهم.

يبادرهم بالسؤال: أين نحن في الجنة أم في النار؟

يقول له "أبو حيدر" الذي توفّاه الله منذ عشرين عاماً: الصبر يا بني، "مالك بالقصر غير من مبارحة العصر" نحن في قاعة الاستقبال الرئيسية لعالم البرزخ من هنا سيتم توزيعنا تمهيداً لنقلنا يوم البعث إلى الجنة أو إلى النار.

هذا أول يوم لك هنا، وستعود إلى الأرض لتودعها، ولتحضر مراسم دفن جسدك بسلام، وستقوم باستكمال ثبوتيات إقامتك هنا (شهادة القبر)، ومن ثم ستعود إلينا، ليخصّص لك مقر إقامة مؤقت، ولتنتظر معنا في هذه الساحة قرار الرحمة الإلهية. هنا بين الفينة والأخرى يمر أحد الأنبياء بنا فيغفر لبعضنا ويشفع لهم، ويأخذهم معه إلى الجنة.

يا ولدي: هنا لا وجود للزمن، فلا شمس تشرق، ولا ساعة تدق، ولا احد يهرم، ولا وجود للمرض، وكلنا هنا نتفاهم بلغة واحدة هي لغة الأرواح.

اذهب الآن إلى مكتب الاستقبال لاستلام تصريح المغادرة المؤقت، واسأل هناك عن صديقنا "حمادة الأهبل الأعور" ألا تذكره؟

نعم... أذكره جيداً كان الجميع يؤذونه، وكنت دائماً أدافع عنه.

اذهب إليه فهو رئيس القسم وسيساعدك لأنه يعرفك.

وهل يوجد لديكم هنا مناصب وواسطات؟

نعم يا بني الأموات هنا درجات، فهناك أموات في القيادة، وأموات بروليتاريا، والمناصب تعتمد على درجاتك في الشهادات التي تمنح لك بعد الموت، وعلى رصيدك في بطاقة ائتمان حسناتك، بطاقتك الائتمانية للحسنات التي يتم إعادة شحنها من الحساب الجاري لأعمالك (علم نافع، ولد صالح، صدقة جارية....).

في غرفة الاستقبال البرزخية علم "عدنان" أن من لديه رصيد حسنات يمكن أن يستعملها للقيام بزيارات استثنائية للأرض، وعلم أن رصيد حسناته يؤهله لزيارة مدتها ٦٣ ساعة فقط، حيث يمكن أن يستعمل هذا الرصيد للبقاء، ولكن عليه العودة قبل نهاية المدة، وإلا استحالت روحه إلى روح شاردة هائمة حتى يوم القيامة.

برنامج العودة لاستلام شهادة القبر بسيط، سيحضر مراسم دفنه بعد العصر، بين المغرب والعشاء سيكون في مجلس عزائه، بعد العشاء سيعود إلى قبره ليتسلم شهادة القبر، ومن ثم العودة للبرزخ، العودة صعبة فالأرواح لا ترى إلا الأرواح وأي مخالفة لقوانين الزيارة الصارمة، ستكون عقوبتها الحرمان نهائياً من العودة.

عاد عدنان من البرزخ ليجد جسده في طريقه إلى المقبرة، يتحرك النعش على أمواج الأيادي الحاملة له كالقارب علواً وهبوطاً، الجميع حوله ينتحب بعضهم بدموع مخاتلة حزناً

على نفسه، أو خوفاً من مصيره القادم، وبعضهم يبكي خسارته الدنيوية بدموع وآهات على الوجوه وأمنيات أخرى في العقول، والبعض الآخر يترحم عليه بألسن متزلّفة، ولكن الكل متَّفق على التخلص من جسده.

احد رجال الدين يطلب له المغفرة والرحمة، يقترب "علاء" منه ويقول:

اطلب المغفرة لنفسك فأنت من يحتاجها.

أستار ترابية مطبقة يرقد أغلى ما كان يملك داخلها، وكفن ناصع البياض يغلف الهدية التي منحها قومه للأرض كي تهضمها بمساعدة مجموعة من الديدان والحشرات التي ستقيم صلاة الشكر للرب قبل أن تهم بتناول وجبتها. لم يكن "عدنان" يعلم أن الديدان توقفت عن التهام الأجساد البشرية منذ مدة، وقد أخذت قرارها بعد أن كثرت حالات السرطان والأمراض الغريبة فيها بسبب اللحم البشري الملوّث.

ولاحقاً ستتخذ الأسماك والطيور قرارات شبيهة حين تصاب بعسر هضم نتيجة عدم القدرة على التهام الشرور والأنانية المركزة في اللحوم الجديدة القادمة إليها!

بعد أن تخلصوا من جسده، يهرول "عدنان" مع القوم إلى مجلس العزاء في منزله، وفي الصالون ورغم أن القوم واجمون، والقرآن يصدح، فهم يتحدثون ويدخنون، وبعضهم يضحك، والآخر ينهي اتفاقاً تجارياً. وكلهم ينتظرون الطعام.

زوجته تبكي وتفكر:

من سيسدد لنا قروض (البنك) المتبقية؟

سامر:

لقد كذب علي "عدنان" قال لي في الأمس: سأمر عليك غداً.

حسن، يجلس على باب الخروج ويصطنع الحزن والوجوم.

منير يحدث نفسه:

متى ينتهي هذا المقرئ من قراءته؟ أريد الذهاب للبيت.

حمد، حين تنهي زوجته العدة سأخطبها لنفسي، فهي جميلة وتمتلك الآن منزلاً.

يترك "عدنان" الجميع وأحزانهم وأمنياتهم ويدخل غرفة ابنته، كلمها، لم تسمعه. حرك الستائر كي يرى وجهها البريء وعينيها الدامعتين، أسقط ملعقة كانت على الطاولة، رغم أن هذه التصرُّفات ممنوعة كما أعلمه "حمادة الأهبل". رفعت رأسها ونظرت، وعادت بسرعة لمملكة حزنها، هو لا يريد إخافتها، فقط يريد رؤيتها. سمع كلماتها وهي تحدثه وتبكي، وقرا معاناتها وحزنها، فبكى معها، بكى فراقها كما تبكي فراقه، دموعها غسلت آثامه، وفتحت له نافذة للرحمة في سكنه الجديد، ترك لها رسالة: (ستأتين إلي ذات يوم، وستفهمين أني الآن بأحسن حال). أخيراً مر بروحه على خدها وقبلها كنسمة مودعاً ورحل.

تجول "عدنان" قليلاً في المدينة، زار أماكن عشقها، هنا تعرّف على زوجته، وهنا مكان عمله، وهنا جامعته، وهنا منزل الفتاة التي أحبها.

الناس من حوله يسيرون في جميع الاتجاهات، وهو يسير في رحلة وداع الدنيا بعد رحلة وداع الجسد، فيصل مع المغرب إلى قبره. لقد كانت وصيته - خوف الوحدة - أن يسكن جسده بجانب أقربائه وأقرانه، وفوجئ أن الروح لا تعبأ بالمسافات الضيقة.

عاد إلى جسده المكفن بالبياض والمتلفح بالشراشف الترابية، على بعد أمتار منه يرقد جسد إحدى النساء، ينظر إليها فيخيل إليه أنها تبتسم له، ربما لا تريد أن تتركه في حاله!

لكن ألا ترى أنه ميت ولا وقت لديه لمثل تلك الأمور، يغمز إليها بطرف عينيه ما أجمل قوامها، لو أنها حية لكلمها وواعدها، ولكنها ميتة.

يدلف إلى قبره منتظراً أنكر ونكير.

بسبب تكاليف الحياة لم يجد "عدنان" وقتاً حتى لكتابة ذكرياته حين كان حيّاً، لذلك قرر أن يكتبها وهو ميت، بعد أن امتلك حريّة التعبير التي كان يفتقدها آنذاك، وارتاح من صخب الحياة، وفقد كل صلة له بالدنيا. بدأ يدون في مخيلته:

لماذا نفهم ونحترم الحياة ولا نريد أن نفهم ونحترم الموت؟ مع أن كليهما رفيقان للبشر!

أحياناً نتمنى الموت للخلاص من الحياة وآلامها ونستدعيه، وحين يأتي نهرب منه، ونبكي خوفاً من مواجهته!.

لماذا نخاف الموت مع أنه نهاية الحياة التي ندركها بكل أحاسيسنا والحقيقة الوحيدة التي نعيشها؟ من جهل شيئا عاداه لذلك نكره الموت.

الموت هو تحرير الروح من الجسد، الروح تعود إلى عالمها الذي أتت منه الجسد يعود للأرض الذي أتى منها.

يبدو أن الإنسان لا يموت دفعة واحدة، فكلما مات شخص يعرفه مات معه الجزء الذي كان يحتله هذا الشخص في نفسه!. ومع الأيام تكثر الأجزاء التي تموت داخلنا... وتكبر المساحة التي يحتلها الموت.

قطار الحياة يربض الموت في محطته الأخيرة ولكل امرئ محطاته، وفي الطريق تبدأ محطات وتنتهي أخرى. الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا!!

لم يطل انتظاره فسرعان ما استقبل في قبره شخصان وسيمان أنيقان ألقيا عليه التحية وبادراه بالسؤال:

- من ربك؟
- اللّه ربي.
- ما هو دينك؟
- الإسلام ديني.
- من هو نبيك؟
- جدي ونبيّي محمد صلى اللّه عليه وسلم.
- هل أنت من أل البيت الأشراف؟
- نعم.

قال "عدنان" لهم: لقد أخافوني منكما، وقالوا أنكما ملكان قبيحان، تتّشحان بالسواد، ويتطاير شرر الجمر من عينيكما، ترمون الأتربة في الحلوق، ولكما لحية طويلة من الحمم، ومخالب تمزق الأرواح، ولعابكما نهر تغلي فيه الدماء. لكني رأيتكما عطوفين، شفوقين، وسيمين، رحيمين، مبتسمين.

قالا له:

- يا بني، نحن مرآة للنفس والأعمال، فإذا كانت النفس شريّرة رآنا صاحبها كما ذكرت، وإذا كانت خيرة كنا كما رأيتنا.

الروح تغتسل بماء السماء، الأرض تتوقف عن دورانها، وهو يستقل قارب "دانتي" مهاجراً إلى شواطئ الحقيقة.

❖ ❖ ❖ ❖

# في المعتقل الصحّي..

في المعتقل الصحي لم يكن إلى جانب "عمرو" سوى والدته المرحومة، والمرحوم والده. غربة في غربة!

اليوم لم يزره في المشفى أحد من الأصدقاء والمعارف، يبدو أن تكاليف الحياة قد أنستهم وجوده، ولكي لا يبقى وحيداً فقد اخترع زواراً من بنات أفكاره وجيرانهم، الذين وهبوه وقتهم، وعواطفهم، وأمنياتهم، وسهر معهم حتى مطلع الفجر.

الممرضات حوله كمحظيات هارون الرشيد، ولكنه لا يملك ما يمنحهم سوى الابتسامة.

الأحلام غفت، والأماني نامت، وواحات الفرح كانت سراباً.

لم يختر أن يسجن نفسه في مملكة الألم، ولكن جلاد المرض حكم عليه بذلك، عاش غريباً ويبدو أنه سيموت غريباً.

عشق الانتظار... فحياته كلها كانت محطات انتظار لقطار أحلام غيّر خط سيره المعتاد، وها هو الانتظار يصادقه اليوم، فينتظر في المحطة هنا موعده مع الموت. انتظره مرحِّباً، ولكن الموت اعتاد الغدر! لم يأتِ إليه في ذلك المساء، واختار بدلاً منه – رغم أنّه تحداه وفتح ذراعيه لاستقباله رجلاً كان

يقبع بجواره، وأخذه معه في رحلته المسائية، وتركه ينتظر في الغرفة مع بقايا أحياء يقاسمونه الهواء، والأمنيات، والآمال.

ربما لو خُير لاختار الرحيل الأبدي من هذه الأرض الموبوءة بجراثيم المال، وفيروسات الغرائز، لذهب معه راضياً مرضياً، داخلاً جنات موعودة.

وكما ودع في بلده يوماً ما أحبابه وأصدقاءه حالماً متأملاً بالعودة إليهم، ودع اليوم في تلك الغرفة أحلامه وأقلامه.

لم يكن بإمكان - عمرو - التقدم في المستقبل ورؤية الآتي، فقرر العودة بسنواته إلى الوراء، وبدلاً من هجرته إلى مملكة الصمت، قصد وطنه عبر رحلة في مملكة الأشباح والذكريات.

فاجتر ذكرياته... أهله هم من علمه الصدق في زمن الكذب، الوفاء في زمن الخداع، الخير في زمن الشر، الحنان في زمن القسوة، الرحمة في زمن الظلم.

خاطبهم قائلاً:

سامحكم الله فقد ولّى زمن الأنبياء.

واجتر ذكرياته مع أصدقائه الذين كانوا دائماً يلومونه على طيبته، ويخبرونه بأن الحياة معركة، وأن الدنيا غابة بشرية، ومن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب. قال لهم: الحمد لله عشت حياتي بكل أبعادها، الطهر والبراءة والمحبة والتسامح والأمانة والصدق كانوا زملائي، والندم لم يعرف يوماً طريقاً إلى روحي، كرهت أكل لحم أخي ميتاً.

واجتر ذكرياته مع من اختاروه ليكون عدوهم .الحاسدون حاولوا نثر الأتربة السوداء على ثوبه الأبيض، ولكنه وعلى الدوام كان من يتقبل الإساءة دون أحقاد، ويكتم جبالاً من الغيظ، وينشد المثالية الصوفية في طباعه

وأخلاقه، وكان دائماً من يوصف – حتى من قبل ألدِّهم عداء – بالأمانة والأخلاق السمحة وحسن العشرة وعمق التفكير. حدثهم:

- اليوم سأرحل عنكم، فقد آن موعدي مع فراق الروح الأبدي، وغداً ستُزَورون التاريخ كعادتكم، كما فعلتم مع معاوية وعلي. بعتُم أخلاقكم واشتريتم بثمنها ثروات، عقوقكم فواتير تسلمتها لطمات على وجداني كوني مصاب بجذام الحق، لا يعطيكم الحق في إعدامي على مقاصلكم، كوني لا أوافق على آثامكم، لا يعني أني مزجور، مجلود، مذبوح. نحرتموني لكنكم لم تحسنوا الذبح، بصركم ارتدّ حسيراً كسيفاً. رقة الوحوش التي ترسمونها على وجوهكم تجعلني أمكث في عرين الألم، وفي داخلي آهة وحسرة، وصرح من التوتر، وصبر يحرق القلب، وحروف دامعة تجعل الوجع يئن تألُّماً.

حاملوا المال كعادتهم يتنافسون على قهر من لا يحوزه، فماسي الحياة يتربع حطب المال على عرش أسبابها، وأنتم يا من لعنتكم جميع الأديان لستم سوى إمعة حمالين للحطب... أقول لكم اليوم ومن سرير العبور إلى عالم الموت، لستم سوى مهرجين في سيرك السلطان، وهمكم الوحيد هو إضحاكه على خيبتكم، وقلة حيلتكم... أقول لجميع عملاء الدنيا وجامعي ملذاتها... أبشركم بالرحيل الأبدي.

عاد "عمرو" في رحلته من مملكة الأشباح والذكريات إلى غربته ومعتقله وغرفته، والسرير، عاد إلى جسده الذي عروه من الثياب، استعداداً للرحلة القادمة.

بعد خبرة ٤٥ عاماً من القتال المستمر، لكسب معركة الحياة وجولاتها، يلهث بزفرات عبرت صحراء المرض

فـازدادت جفافـاً، قفصـه الصـدري يَسـجِنُ ظلمـاً أنفاسـه وأحاسيسه فيتأوه بصرخة معذب مظلوم، ويبصق العالم من فمه، كما يبصق علكة فقدت حلاوتها.

الصـمت في الغرفـة يرخـي سـدوله علـى الجميـع، لا طعام، ولا شراب، لا هواء، ولا رفيق إلا الألم والأمل. عيناه تطلبان النوم، وجسده يكافح ليرى نور الغد، ينام تعباً محدق العينين في شمس آفلة.

قطرات المحاليل في الوريد، كقطرات الري بالتنقيط، يعد على رتمها دقائق الليل الراحل، فتساعده على عبور جفاف صحراء المرض.

وبعد ليلة صارع فيها القلب أمواج المرض، فاستسلم لموجة قوية أرست قاربه المهترئ على شاطئ الموت، استعد للنوم الأخير. واستعد جسده للتلحف بالشراشف الترابية.

في تلك الليلة عايش عمرو مخلوقاً غريباً، له طعم ونكهة ورائحة خاصة لا هو الموت، ولا هو الحياة. أمانيه نامت فصحت على صوت أنينها، وجعه انتحر في مقلة الصمت، فلم يصرخ دمعاً، حروف غضبه أغلقت معابر الكلام، فسكب نفسه فكرا على صفحة الوجدان، فما يكتب بشجن يُقرأ به!

الصبح يتنفس، ويطل بستائره البيضاء خيوطاً تملأ فراغات الغرفة، اللون الأبيض ينتصر على كل مقاييس النبض والتنفس والضغط، الموت يغادره مودّعاً واعداً بأنه يوماً ما قادم لا محالة، ليسدل أستاره السوداء على الفصل الأخير من مسرحية الحياة. ريح الموت ستمزق الأشرعة، ورغم العرق الذي سيبذله الأطباء والممرضون، فإنّ النصر سيكون حليفه. ويوماً ما ستكون آخر الكلمات:

بل الرفيق الأعلى.

يا موت يا موت.
هذا ما جناه أبي علي ولم أجنِ على أحد.
اللهم اغفر لي فإنهم يزعمون أنك لا تفعل.
صفقوا أيها الأصدقاء... لقد انتهت الكوميديا.
لقد حاولت بشدة أن أفعل الصواب.
أعلم أنك جئت لتقتلني... اضغط الزناد أيها الجبان، فلن تقتل إلا مجرد رجل.

الموت سيكون صديقاً مخلصاً بعد الحياة، لأنه الوحيد الباقي بعد أن يغادر الجميع، لذلك علينا أن نعتاد صحبته، نحن في هذه الدنيا عابرو سبيل وأشدّنا ذكاءً أكثرنا إحساساً بالغربة. سواء امتلكنا غربة الضياع، أم غربة الطريق، فنحن مسكونون بالرحيل، لا وقت لدموع الغربة والحنين، لا نفع لدموع الهزيمة أمام قلة الحيلة.

ثلاثة أيام مضت في هذه الغرفة الحميمة، كانت دقائقها أعواماً. وفي اليوم الأخير لبس "عمرو" جسده من جديد، وخرج من المشفى إلى غربته التي اختارته واختارها، تاركاً الألم مصطحباً الأمل، متمنياً للجميع طول العمر والبقاء، وهو يعلم يقيناً صعوبة تحقق أمنياته.

❖ ❖ ❖ ❖

# أسطورة الحبّ الأزلي..

مع تلافيف المساء، لملم الوجد حقيبته مودعاً، باحثاً في رحلته السرمدية إلى عالم مجهول عن مأوى في كهف أسطوري، مرفرفاً بجناحي الليل المزين بقمر كالعرجون القديم فوصل الفجر متعباً من رحلة المساء.

النفس المهاجرة إلى مجهول جديد عبر رحلة أبدية لـ"هيرميس"[1] تخترق السحب القطنية، تعانق طبقاتها، وتخرج إلى الفضاء السحيق، متحررةً من المألوف بعد أن طحنتها راحة الزمن، وأحالت سنابلها الشامخة إلى غبار دقيق، ما لبث أن تمرد مع الريح، فسافرت ذراته على أمواجها، فالتقتها سحب دخان مهاجرة، تبادلتا العناق والحديث عن ذكريات الطفولة قبل أن تروضهم وتذرهم السنون.

الروح الهائمة لا تزال في رحلتها من بعيد لبعيد، كأيقونة الحب الزمردي تقبل وجنات الدجى، توقظ ملائكة الوجد من سباتها، فتغرد عناقيد الحب خمرة "دايونايسوس"[2] وتدور الكؤوس، وتتصارع الضحكات مقهقهةً، حتى تتساقط دموع الندى مرحبةً بفجر جديد.

---

١- هيرميس: إله السفر عند الإغريق.

٢- دايونايسوس: إله الخمر.

الحب الأزلي والوجه السرمدي لاكتهما السنون، وامتصت رحيقهما، فجفت بتلاتهما، وتحولتا إلى شراب ساخن، رشفته شفتا شاعر متمارض، فالعذرية والبراءة تفقدان لمرة واحدة في مسيرة العمر.

النفس الأرجوانية الأفعوانية، هاجرت إلى مملكة التعب، ونادت جموع المتعبين:

هلموا إليَّ أنا "أفروديت"[١] ابنة الطهر والعفة، اجتمعوا إليَّ أبنائي أنا "فينوس"، أنا "عشتار" أمكم الثيب الطاهر طوبى لكم زهرتي سقيتها بدموع أبنائي، أبحرت مع سفن الأحلام ولم تأبه بعواصف الأيام أبحرت باحثةً عن قارة جديدة للحب والحنان ومن أبواب المجهول كانت أولى رحلاتها، رافقت "رع" في رحلته آتياً من ملكوت الظلام، وهمست في أذن "عشتار"[٢] و"أفروديت" بسطوعي سيشرق جمالكن على الحياة.

ركبت سفينة "اوتونبشتم"[٣] للنجاة، وأمسكت الأفعى العصا، وتفيأت بظل صليب "إنانا"[٤] الدامي ولما عاد "إيتانا"[٥] من الأقصى كانت من أوائل مستقبليه.

---

١- أفروديت: إلهة الحبّ والجمال عند الإغريق.

٢- عشتار: هي آلهة الحبّ والإنجاب والحرب عند البابليّين والكنعانيّين والفينيقيّين.

٣- اوتونبشتم: صاحب قصّة الطوفان السومريّة (النبي نوح).

٤- إنانا: إلهة الحبّ والفنّ ومعابدها عند البابليّين (النبي عيسى).

٥- إيتانا: ملك عقيم ابن الإله إيل صعد إلى السماء على نسر (الإسراء والمعراج).

الآلهة تستقبل وتودع، روحها الهائمة تبحث عن مجد قديم بعد أن قتلها جحود معبوديها حين تخلّوْا عنها واستبدلوا بها سطوراً وصفحات.

هاجرت من كهف أسطوري، سافرتُ في زمن الرجوع وعادت منتصرة على صوت صهيل حصان "النابغة" ولمعة ثغر "عبلة" المتبسم، تعلمت القراءة في وادٍ غير ذي زرع فانتصرت في معارك خاضها الورق والقلم.

دخلت اليم، وأبحرت في مراكب النسيان، النجوم هي الربان، والأمواج هي الملاح، زرقة السماء، وصفرة الشمس رفاق الدرب. أبحرت في دموع الهجر، والكأس ملآنة بالملح والحزن، هذيان العواصف تترجم لغتها الأمواج. أبحرت في اليم بقصيدة مبتورة شراعها حاكته خيوط المعاناة.

❖ ❖ ❖ ❖

# السّرير الأبيض..

على أريكة الحياة، يتهالك القلب المتعب، نبضاته تعد الثواني المتبقية، الجسد المنهك يعانق السرير الأبيض، الزمن يترك علاماته على الوجود.

سرير بلون الحقيقة، لونه الأبيض يشع بالأمل، والأجساد تبادله الألم، قَدَره أن يكون مجمعاً للأحزان، ومحطةً قصيرةً للأجساد المتعبة.

الغرفة تبتلع أجساداً منهكةً، تستعد للرحيل الأبدي، جسد ينتفض هنا، وآخر يتهاوى هناك، وثالث يخوض معركةً فينتصر في جولة، وآخر يخسر جولةً. أرواح مبعثرة، تجمعها وحدة المعاناة، والرغبة في طريق العودة. كم من أجساد أنهت رحلتها هنا! ففارقتها حزينةً أرواحها، وابتعدت عنها إلى غير رجعة.

ملاك الموت يقود الرحلة، ويجلس مرتاحاً في عربته يدخن غليونه، ويختار زبائنه في رحلته الآتية.

جنود من الأطباء، بأسلحتهم الكيماوية والإلكترونية، يرممون جداراً عازلاً أمامه، الموت سلعة يقتات منها الجميع.

آلة الجسد بحاجة إلى إصلاح، فإذا تعذر إصلاحها، فالأرض جائعة، تريد أن تهضم وجبةً جديدةً لتثمر بها حياة

جديدة. الحب الأزلي الوجود، والروح الفسيفسائية المتطلبات، يسكنان غابات الحقيقة الخضراء، حيث أشعة الشمس الذهبية ترسم وجودها على سيقان الأشجار، فتعري الحياة المستترة وتبعثها من التربة، معزوفة الطبيعة تبتسم في تناغم مع معادلات الحياة.

أنغامها الملونة ترسم لوحاتها الموسيقية، فتبدأ بذورها بالتغلغل، والتعشق، والتجذر، والتعنق منطلقةً نحو سيدتها الشمس معانقةً الهواء معلنةً ولادة حياة جديدة.

معنى الحياة لا يفهمه، إلا من ذاق الموت، أو اقترب منه، الصراع بين الروح والجسد، بين الوجودٍ والعدم، بين الحياة والموت، النفس تصبح صافيةً صادقةً، لا جوع ولا جنس، لا كذب ولا سرقة، لا صراع ولا أموال. تسود غريزة واحدة، هي غريزة البقاء. قناة الروح تعود إلى صفائها، ونور الرب يضيء الجسد، حتى المشاعر تكون صادقة، والثقة بمن حولك عمياء، والأمل والألم يتحدان. حسابات البنوك تتجمد، والعمارات والأراضي تصبح وحشاً يريد أن يهضم الجسد.

المعركة تكون مع أحد أعضاء الجسد، انتقل الصراع الكبير إلى صراع مع الذات مع الجسد، لا رفيق ولا صديق، لا أموال ولا ممتلكات، ولا نفوذ ولا قوة.

انتهى كل شيء، أتت ساعة الحقيقة، على الباب ينتظرك قفص حديدي، لينقل جسدك إلى عالم الظلام، ومن ثم ليقدمه طعاماً للأرض.

هنا تنتهي ملاحم الأبطال، فيتلاشى العظماء، ويتحول الجبابرة على هذا الأبيض إلى ذكريات، ما تلبث أن تذروها الرياح.

❖ ❖ ❖ ❖

# أصدقائي الألدّاء...

"أصدقائي الألداء في الغربة كم أتمنى لو أتقيأ في وجوهكم! لأرد لكم ولها بعض الدين الذي نضحت به"

بهذه العبارة المقرفة بدأ "سليم" كتابة رسالته من على سرير المشفى وهو يتذكر المواقف غير النبيلة لبعض أصدقائه العرب في رومانيا بعد أن علموا ما ألمَّ به من مصاب.

ورغم أن البعض في هذا المشفى عامله باللغة الدارجة لغة المادة والمصلحة، لكن "سليم" كان سعيداً بمعاملتهم، ولم يفكر حتى أن يكتب عن سرقاتهم وفسادهم وقلة حيلته، ربما لأنه يدرك أن أحداً لن يتجرأ ويقرأ له، أو أن قرّاءَه سيعدمون أفكاره الهاربة ويمنعونه من أن يطال الموز في القفص، ولاحقاً سيتم (مرمطته) بكل كفاءة! ليكتشف أخيراً أنه ليس بطلاً. فالسكوت من ذهب، والأشجار تعيش طويلاً لأنها لا تتحدث إلا عن عمرها.

المشكلة في الضمير العربي أنه حي عندما يتعلق بنقد الآخرين، ونائم حتى الموت عندما يتعلق الأمر بالمصلحة الشخصية، فنحن نحتقر ونسلخ الأشخاص الذين يرتكبون نفس الأخطاء التي نرتكبها ونشعر بالسعادة لارتكابها.

ورغم بُعد زمن هجرته عن الوطن إلا أن غبار الوطن لا يزال متغلغلا في ريش أجنحة الفؤاد، ولا تزال بقايا نكهته بين أسنانه، ولا تزال ذرات هوائه ساكنة في رئتيه.

ولأن أصدقاءه كانوا بقايا وطنٍ عشقه، وأملٍ في الانتصار لقيم رضعها، وممارسةٍ لأخلاق تُرعرع في حناياها،

فقد آلمه أنهم كتبوا كرههم لبياض الورق بمداد سواد القلوب، وراعه أنهم يهربون من الخير كما تهرب خفافيش الظلام أمام نور الحقيقة.

في البداية تعاطفوا مع معاناته... وأشفقوا على مآسيه... وتباكَوْا لحزنه، وحين هدأت العواصف، وخلد تعباً إلى شاطئ الأمان، راعهم رحيل مصائبه، وضاقت صدورهم بفقدهم لذة الاستعلاء على آلامه. وخشوا أن تنهي بسمته فرحهم بمصائبه! فاستحالت ألوانهم الحربائية إلى لون الحقد والغل.

بدَوْا عمالقةً من بعيد! وحين اقترب منهم ذهل لصغر حجمهم، فقد تقزموا أمامه حتى التلاشي! كانوا أنبياء على المنابر، وبعد أن هبطوا منها، أصبحوا وحوشاً كاسرة لا ترى حولها إلا فرائس تنهشها.

عرفهم رحماء، عطفاء، حين كانوا يتحدثون وعندما بدؤوا يفعلون، خلعوا أحاسيسهم على أبواب مصالحهم كما يخلعون أحذيتهم قبل النوم بعين قريرة.

أصدقاؤهم الجشع والطمع، وندمائهم الاستعباد والاستغلال، على موائدهم ولائم الأنانية والمصالح. كتاب مقدس على يمينهم، وشعارات المرحلة على يسارهم، والشر لا يفنى فيهم حتى وإن قبروا، لا يخجلون من فعل العيب وإنما ينتابهم الخجل حين يكتشف عيبهم الآخرون.

تحسبهم أغنياء بما يمتلكون، وبالكنوز التي على ظهورهم يحملون. ولكنهم فقراء الأخلاق ومعدومو القيم يرفضون الإذعان للحب والرحمة والتسامح لأنه يفقدهم وجودهم وأملاكهم.الحب لديهم أضحى كالزائدة الدودية حين يؤلمك فعليك استئصاله فوراً.

يبحر "سليم" في أروقة الذاكرة ودهاليزها فيحذف منها ما يمكن حذفه، يخلع ذاكرته كما يخلع ساعته قبل النوم، يفتش في خرابيش الطفولة عن صديق، عن طريق ضم

جسده، ويتعب فيخلع آماله، وحذاءه ويختبئ في أعماق السرير.

يطرد الأحلام فالأحلام بإنسانيتهم كانت جرعات مخدر أدمنه حتى ورط نفسه في قضية خاسرة هي قضية وجوده مع أمثالهم.

توقف الدم عن الجريان لثوانٍ معدودات كانت كافيةً لتوقف كل المصالح، ولتراكم الأحقاد وفواتير الاستحقاقات. قالوا له يبدو أن في حساب عمرك لا يوجد رصيد كاف، فبدأ يشرب وجعه المعتق حتى ثمل من الألم.

"سليم" كان مشروع أديب ضل طريقه في ردهات العمل، أفكاره تلقح بويضات الصفحات فتخصبها لتصبح مولوداً جميلاً يأخذ مكانه في عائلة الكتّاب، بعض الأفكار تضل طريقها والأخرى تموت مضغةً أو علقةً أو تولد مجهضة. وحين ألقى ملابس الكلام تعرّت النفس. حقن نفسه بمصل الموت. فاكتسب مناعة العيش.

كان يحب التقرب إلى الأنبياء، فهم كما يرى خيرة الناس. أرسلهم الرب بسلاح الأخلاق والقيم والمحبة والتسامح والكلمة، ولم يرسلهم بالمال والجاه والعتاد، كان يدرك أن الثروة هي العقل والروح، حتى التاريخ حين يتكلّم فإنه لا يحدثنا عن أصحاب الثروات والأملاك، وإنما يحدثنا عن أصحاب الفكر.

وعليه فان روح وأخلاق وكرامة الإنسان لا تثمن لأنها أعلى من أي شيء. ولكنهم ابلغوه أنها رخيصة لأنها موضوع روحاني لا قيمة مادية لها! وان جميع ما يملك منها يباع في سوق النخاسة.

لذلك فقد رحل من قربهم بصمتٍ مؤلم، رحل لكي تعود إليه مشاعر الغبطة والسرور. فبعيداً عنهم تخضرّ أرض القيم والمبادئ، وتزهر وتثمر وتعود نبتة الحب والإحسان للامتشاق، ويأخذ العدل والمساواة مكانهما.

رفض إلقاء وحشيتهم المتزندقة. في سلة مهملات القسمة والنصيب، فسليم لا يفهم الحب بدون تضحية، ولا يدرك كيف تكون الزكاة دون أموال، ولا يرى تحقق الإيمان دون اله الخير، ولا يفهم مجتمعا يعتمد على اللعن والطعن. و يمسك فيه مفاتيح الثواب والعقاب من يحفظ كتاباً وبعض جمل، مريدوه يبتهلون خوفاً من العذاب أو إرضاء لمن حولهم.

هرب "سليم" من محيطهم واكتفى بأن يقول لهم: رغباتكم لن تطفئ تمردي، الصديق تزرعه بالمحبة وتحصده بالشكر لذلك تحولت حقولكم إلى مزارع للأشواك، فأراضيكم مالحة لا نبت فيها ولا زرع، زمن الطيبة والمحبة لم يمت وإنما هاجر من أراضيكم ونزح من مدنكم بعد أن عانى الجوع والعطش وأصبح دون مأوى، فالحقيقة يا أصدقاء اختارتهم لي غربتي أكبر من أن تحدها جغرافيا الأمنيات، وأن تغطيها حمم الشهوات، وأن تحجبها غرابيل النفاق.

حتى الحشرات مافتئت تتساءل عن سبب سحق الإنسان لها، وهي تقطن الأرض قبله حتى ملت من الإجابات غير المقنعة (القرف - التوازن البيئي - التقزز - المزاج) ولذلك قررت أن تعيش وتقاوم، لا أن تتساءل.

يطفئ "سليم" شمعة أحلامه كي لا يلعنه الظلام، ويعزف على أوتار الصمت ألحان النوم، في الخارج السماء تبكي فقدان الخير مطراً منهمراً ودموعها تزيد ملوحة البحر.

سويعات وتبدأ أشعة الشمس بالبحلقة بعينيها الناريتين في فراغ الأرض، فيطرد نورها خفافيش الصور الشعرية من مخيلته، وتنسج خيوطها على المغازل نسيج حكايات تخيطها بإبرة عاقر لم تحمل خيطاً، تثقب قماش الذكريات دون أن ترتقه.

❖ ❖ ❖ ❖

# ضحيّة أمّ مجرمة..

سؤال ظل يقض مضجع "سارة"، ويطرق كالسندان على أفكارها لفترة طويلة من الزمن، كانت سارة خلالها كمركب صغير في محيط عاصف تتقاذفها أمواجه في جميع الاتجاهات، وكانت تبحث عن شمس تدلها على الشرق، أو قمر يدلها على الغرب، أو نجمة تضيء لها عتمة الإجابات، وأخيراً قررت أن تجد أي شاطئ لترسو عليه مراكب حيرتها، فتصالحت مع نفسها، بعد أن قررت أنها كلاهما، أيقنت سارة أنها فتاة ثنائية جامعة للألقاب: عربية رومانية - ضحية مجرمة - مسلمة مسيحية - ملتزمة مارقة - جامعة للأضداد.

في إحدى الأمسيات اكتشفت "سارة" أنها مسلمة، أخبرها والدها بذلك، بعد أن رآها تقبّل مودعة صديقها "ميهاي" على مدخل العمارة، في مساء ذلك اليوم بين لها عبر محاضرة طويلة عن العادات والتقاليد والدين من هي! وكيف يجب أن تكون!

وأخبرها أنها يجب أن تصلي وتزكي وتصوم، وأن لا تأكل لحم الخنزير، وأن تقرأ القرآن وأن لا تتكلم مع الشباب، ولا مانع لديه من أن تضع الحجاب! وحدّثها مطولاً عن عائشة زوجة الرسول محمد (ص) وعن ضرورة الالتزام بدين آبائها وأجدادها، والحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم، ولكن الأهم من كل ذلك أن لا تغضب الله ورسله وملائكته وان لا تعود إلى تقبيل ميهاي!

سارة تحب أن تصلي لله، واعتادت أن تعطي الفقراء، وتصوم دائماً، خاصة أنها تعتقد أن الصيام هو ريجيم رائع لذلك قالت لوالدها يومها: أنا فعلاً مسلمة ملتزمة، ولكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من ممازحة زملائي الشباب، وقبول مغازلاتهم وإطراءاتهم لي، ولا أستطيع أن أرتدي الحجاب كما كانت تفعل السيدة مريم العذراء. وأضافت بعفوية أنا ملتزمة بعبادة الله أذهب مع والدتي إلى الكنيسة كل يوم أحد، وأشعل الشموع، وأتناول القربان، وأصلي هناك.

وأضافت بفخر أنا لا أحب الخنزير لا شكلاً ولا لحماً، ولكني أحب كلبي الصغير (تسوتسو) ولا أعتبره نجساً، أنا أحب الموسيقا أيضاً، وأحب الاستماع إلى القران، والتراتيل الإنجيلية، والسمفونيات وأغاني فرقة السبايس، وأحب الرقص الشرقي ورقص السالسا. قرأت كتب التاريخ، وعلمت أن النساء كان لهنّ دور كبير فيه. وإن كانت لا تعجبني الكبّة النيّة، فليس معنى هذا أني أتنكر لشرقيتي، وكوني مغرمة بالبيتزا والهامبورغر، لا يعني أن طباعي غربية وأني انفصلت عن ديني وعاداتي وتقاليدي!

في يوم من الأيام أضحت "لاورا" تلك الشقراء الرومانية ذات العيون الربيعية الآتية من الشمال زوجة للعربي الأسمر حسن القادم من الجنوب، هي اختارت أن تكون متميزة، وطموحها قادها إلى غلطة عمرها كما تقول، أرادت أن تقفز خارج سياج المألوف، وتتمرد على مجتمعها الشيوعي القاسي، أرادت أن تدخن المارلبورو وتستمع إلى موسيقى الجاز والديسكو، وتلبس الجينز وتتقلد الأساور، فجربت أن تنال حريتها عن طريق الزواج من أجنبي، لتنتقم من قسوة الحياة معها.

كان لـ"لاورا" صديق روماني يحبها، وعن طريقه تعرفت إلى "حسن" الذي يمتلك لساناً كالشهد حلاوته، وأضحت "لاورا" حلماً للجنوبي الأسمر، الذي تمكن من نسج شباكه حولها فوقعت فريسة له بسهولة، تركت الجميع

ولحقت بحلمها، وحينما بلغت ابنتهما ٤ أشهر في بطنها، تزوجت "لاورا" من "حسن" وكانت "سارة" هدية عرسهما بعد ٥ أشهر من إقامته، "لاورا" وجدت في "حسن" الشخص الذي تتمناه، وتعلقت به ولكنها ومع كل ذلك رفضت أن تتحول لدينه لأنها مقتنعة أن الإيمان هو في القلب أولاً والممارسات الجسدية الإيمانية تأتي ثانياً، ولأن "حسن" لم يحدثها ولو مرة واحدة عن الإسلام.

بعد سنين وحين رأى حسن ابنته تعانق ابن الجيران أمام باب البناية ثارت ثائرته، وتذكر بعض الأحكام التي أحضرها من بلده، وبدأ يحاكم ابنته بمفاهيم نائمة منذ عقود استيقظت من غفوتها وبدأت تنهش غيرته وأخرجته عن طوره، فانفرد بزوجته "لاورا" وبدأ يسبغ على ابنته ألقاباً جائرة (غير خلوقة، فلتانة، كافرة) وغيرها من المفاهيم والألقاب التي لازالت عالقة في ذاكرته. ونسي أو تناسى أنه هو من عاشر والدتها لمدة أشهر قبل الزواج، ونسي آراءه في أن الزواج هو ورقة رسمية تحفظ للزوجة حقوقها المدنية فقط وأنّ الصداقة هي إشهار وزواج.

ولكن كيف لهذا العربي أن يفهم المجتمع الروماني وهو لا يتكلم الرومانية بشكل جيد حتى اليوم، وكيف يمكن أن تقنعه زوجته وهو يدعي العلم والمعرفة بكل شيء، ويتفاخر بأنه يحمل شهادة طبيب رغم أنه لم يتقن سوى العمل في التجارة.

والطامة الكبرى أنه حين يتعلق الأمر بأحمد شقيق سارة، فإن الوضع يختلف، والمحاكمات لا تتطابق، فحسن يسمح لابنه أن يستقبل صديقاته في غرفته، ويعلم ما يحدث هناك، ولا يعترض بل إنه يمازح صديقات ابنه، ويفتخر بتوريثه الفحوله أمامهن، "أحمد" يحق له أن يخرج ويصاحب من يشاء، ويتأخر عن المنزل قدر ما يشاء، أما إذا تأخرت "سارة" عن المنزل فستخضع لمحاكم التفتيش وللعقوبات الاقتصادية وللحصار الجائر، فهناك في الجنوب مصطلحات عربية نسائية

لا يجوز إطلاقها على الرجال وهي (الزنا – الخيانة – العهر – الشرف – الخ)!؟

والأغرب من هذا كله أن "حسن" لا يصلي ولا يصوم ولايزكي! ومع هذا فهو يقرر أن زوجته لن تدخل الجنة معه رغم أنها تصلي وتذهب للكنيسة وتعطي الفقراء وتصوم! وذلك لأن الجنة ستكون حكراً على المسلمين فقط، لأن الإسلام كما يقول هو آخر نسخة من الأديان، والنسخ السابقة ملغاة، وعلى الجميع أن يكونوا مسلمين.

والدة سارة تقول أن الهدف من الدين هو الوصول إلى الله، عبر المحبة والتسامح، ولا فرق بين الأديان فكلها طرق للوصول إليه.

"سارة" أدركت بفطرتها أن هناك صراع للمفاهيم بين الجنوب العربي والشمال الروماني لم تطفئ السنون جذوته، ويمكن لأي ريح أن تذكيه ناراً. فوالدها رغم كل تلك السنين لم يتمكن من التحرر من مفاهيم رضعها، وعادات وتقاليد بالية حفرت في مورثاته.

وسارة بفطرتها تجنبت الدخول في علاقات سرية، وحافظت على عذريتها، فقط لأنها لم تجد حتى الآن من يستحق أن يكون الرجل الأول في حياتها، ورغم أن صديقتها حسناء والداها عربيان فقد أنهت في الأمس فقط علاقتها الغرامية مع رابع شاب في المدرسة، لكن هذا لم يولد لديها الحافز على اللحاق بركبها ومنافستها.

"حسن" يدرك أن المعركة التي قرر دخولها هي معركة خاسرة، ويعلم أنه يدفع ثمن غربته وعدم تأقلمه، وإهماله زرع قيم أجداده في أولاده، ولكن مشكلته كسكين ذات حدّين تقف في بلعومه لا يمكنه أن يبتلعها، ولا يمكنه أن يخرجها، ففي كلتا الحالتين سيصاب بجرح عميق.

❖ ❖ ❖ ❖

# فتاة بوخارست العربيّة..

عندما كانت الدموع تملأ عينيها الخضراوين وهي تتكلم، وحين كانت الآهات تمتزج مع حركة المنديل مجففاً دموع الندم، فإنك تشعر أنك أمام ضحية، أما حين تكتمل خيوط مأساتها التي روتها بلغة عربية تمتزج فيها المصطلحات الرومانية تدرك مدى سذاجتها وقلة حيلتها وغدر الزمان لها. وتتأكد أن جمالها وخفة دمها وانطلاقتها وشبابها وأنوثتها المتفجرة كانوا جواز سفرها إلى عالم العذاب.

تقول فتاة بوخارست العربية:

توفي والدي وأنا على أعتاب المراهقة، وترك لأمي ثقلا ناءت بحمله، لم يكن والدي من أصحاب الثروات، وكان جهده يدر عليه ما ينفق لتربيتنا أنا وأختي، وبوفاته المفاجئة لم يترك لنا إلا الذكريات الجميلة.

كنت حينها أدرس في المدرسة العربية في بوخارست، واضطرت أمي تحت ضغط المصاريف إلى نقلي إلى إحدى المدارس الرومانية. وبعد عدة سنوات من وفاة والدي وقعت والدتي فريسة المرض وبقيت طريحة الفراش لمدة طويلة كانت كافية للقضاء على جميع المدخرات التي تركها لنا والدي خلفه، لذلك فقد تركت مدرستي واضطررت للعمل في مكتب أحد التجار العرب وهناك تعرفت على (عبد الرحمن).

كان عبد الرحمن شاباً ودوداً يتردد إلينا في المكتب بحكم عمله وعلاقاته مع صاحبه، وكان دائماً يغازلني

ويمتدح عملي ويرضي غروري كان يردد دائماً "أن هذه الأيدي الناعمة والعيون الربيعية، لم يخلقوا للعمل وإنما لبيت الزوجية" وكان دائما يحضر لي الهدايا في المناسبات.

لا أنكر أني أعجبت به، وشعرت بحس المرأة أنه يبادلني الإعجاب. وسرعان ما بدأ الجميع من حولي يدرك ما سيحدث بيننا، حذرني البعض منه بأنه زير نساء وحتى أن صاحب المكتب قال لي: أنت فتاة مسلمة وتصرفاتك محسوبة عليك، وقال له أمامي انتبه يا عبد الرحمن فهذه الفتاة اليتيمة أمانة في أعناقنا، وهي أختنا فانتبه لتصرفاتك معها ولا تستخدم مكتبي كوسيلة اتصال لتوقع بها، وطلب منه عدم الحضور للمكتب.

مرت الأيام وزادت الإلفة بيني وبين عبد الرحمن وكنا نتقابل بعد أوقات الدوام في أماكن عامة، وكان يحدثني عن الحب والزواج والأولاد، وكنت أحب أن يوصلني بسيارته إلى المنزل، وأحب أن أزور المطاعم وأماكن التسلية التي أذهب إليها برفقته، وبعد فترة حاول التمادي معي في سيارته فصفعته، وخرجت من السيارة وأنا أبكي بحرقة وخوف كنت أبكي خوفاً من أن أفقده.

اتصل بي فأخبرته أنه إذا كان جاداً وإذا كان يحبني فعلاً فيجب أن يتقدم لخطبتي رسمياً من والدتي كما هي العادة في بلادنا، وأعلمته أن أمي تعرف كل شيء عن علاقتنا وأنها لا تعارض الخطبة. خلال أيام أتى إلينا مع باقة ورد كبيرة وخاتم وإسوارة وخطبني من أمي، وكان هذا اليوم من أجمل أيام حياتي.

تطورت علاقتنا بعد الخطبة وبدأت بالوثوق به وركنت للاطمئنان إلى نواياه، فتخليت عن حذري، وبدأت الخروج والسهر معه لما بعد منتصف الليل أحياناً، وبناءً على رغبته تركت عملي.

بعد شهور من خطبتنا وقصة حبنا التي اقتصرت على العناق وقبلات التحية والوداع، طلب مني وبمناسبة أعياد الميلاد أن نذهب سوية للجبل لنقضي يومي عطلة الميلاد هناك، في البداية رفضت الفكرة، ولكنه أصر واتهمني بعدم الوثوق به، وبأنني لا أحبه وأن الحب يعبّر عنه بالثقة، وتمكن خلال أيام من أن يقنعني خاصة وبأننا لن نكون وحيدين فجميع أصدقائه سيذهبون مع فتيات رومانيات وعربيات ولا شيء سيحدث وطلب مني أن أطرد الأفكار المتخلفة من عقلي إذا أردت أن أكون زوجته، وخاصة أننا سنعيش في رومانيا بلد الانفتاح والحرية.

كنت خائفةً أن أفقده وأعود إلى الشقاء والتعب، وربما لن أجد حباً آخر في حياتي وكنت، خائفة أن أندم وأخيراً فكرت وقررت الذهاب معه، وأخبرت والدتي أني ذاهبة مع صديقاتي.

حتى اليوم لا أدري أسباب انزلاقي إلى الهاوية ، أكانت زجاجة البيرة التي شربتها، أم الغيرة من الفتيات الرومانيات وقصصهن حول الحب، أم الرغبة في تملكه وإرضائه، أم قلة الخبرة أم الثقة المطلقة، أم هو الحب والتضحية وإسعاد من تحب؟ ومهما كانت الأسباب فإن النتيجة كانت مرة، هناك ارتكبت أول وآخر غلطة في حياتي، أرتكبت جريمة بحق نفسي وبحق أمي.

في صباح ذلك الأحد بكيت كما لم أفعل طوال حياتي، وبالرغم من أنه أخبرني أنني زوجته أمام الله، وبأنه مسلم وأنّ الزنا محرم في الإسلام، وأنه نسي نفسه بسبب المشروب وحبه لي، وأن المسالة فقط أوراق سيتم إصدارها، وأنه لن ينسى أنني أثبتُّ له حبي وتضحيتي، وأنني منحته أغلى ما أملك، وأن موعد زواجنا سيكون قريباً بعد عودته من السفر لإعلام أهله. فقد كنت سعيدة وخائفة، لكنّي تابعت علاقتي معه كزوجة حتى ودعته يوم السفر.

في الأسبوع الأول لسفره كان يخابرني كل يوم، وبعدها بدأت اتصالاته تخف وتتباعد، وفي إحدى المرات ردت أمه على هاتفه وقالت لي: أيتها العاهرة اتركي ابني بسلام وانسيه فقد تزوج؟

أغمضت عيني وتمالكت نفسي وبكيت في داخلي واتصلت مجدداً ولكن الرقم لا يرد!

هل أنا في حلم؟

هل هذا هو الرقم الصحيح؟

أرسلت الرسائل وما من مجيب! هناك أمر جلل ولاشك؟

توقفت عن الاتصال، وتوقف الزمن، لم أعد أقرب الطعام، ولم أعد أتكلم، ولم أعد أسمع، ولم أعد أشاهد في مآقيَّ سوى الدموع.

ماذا ولماذا وكيف؟

في العاشرة ليلاً ذهبت إلى صديقه "ناصر" وكنت أبكي أمامه كالأطفال، رجوته أن يتصل به، وعلى الطرف الآخر أتى صوته! فهمت أنه لا يرغب في الحديث معي، ولكني أخذت الهاتف من ناصر عنوة، وكلّمته بصوت متهدج قلت له أخبرني ماذا هناك؟

على الطرف الآخر أتى الرد: اذهبي إلى بيتكم، وسأتصل بك خلال ساعة وهكذا كان.

وفي بوعده واتّصل بدا صوته منخفضاً وذليلاً: سامحيني يا حبيبتي فقد اضطررت لقبول الزواج من إحدى قريباتي وحين أعود سأشرح لك!

أغلقت السماعة وأغلقت معها حياتي، لقد فقدته وفقدت نفسي.

أهكذا بكل بساطة ذبحني، واليوم يقول لي اذهبي فأنت لا تنتمين إلى عالمي. آه يا أبي أين أنت لتدافع عن ابنتك الضعيفة المذبوحة؟ آه يا أبي كم أتمنى أن أكون إلى جانبك.

الانتحار هو الطريق الوحيد الذي ارتسم أمامي، وكنت أفكر فقط بأسهل طريقة للموت.

لا أدري كم مر علي من الوقت وأنا طريحة الفراش أقتربُ من الموت، والموت يبتعد عني.

أسابيع مرت وأنا على هذه الحال ولكنها كانت كافية لكي أستحيل شبحاً، ورغم أني قد علمت بوصوله بوخارست، فإني كتمتُ مأساتي في صدري، ولم أجرؤ حتى على الاتصال به، خوفاً من الحقيقة الآتية، كنت أفضل أن أعيش على الآمال من أن تخرج الطلقة الأخيرة من شفتيه فتصرعُني، لكنه اتصل بي وقال لي يحب أن نتكلم.

فرحتي بهاتفه كانت لا توصف، لعله قد أدرك الخطأ، لعل الحياة ستبتسم لي ثانية، لعل الحب هو الذي كان بيننا، الخوف من فقدانه إلى الأبد والفرحة بهاتفه رافقاني إلى لقائه الذي اخترت أن يكون في مكان عام.

في كلماته الأولى بثني شوقه وحبه، ورغبته في استمرار حبنا للأبد، ورغم زواجه ورغم أن الأقدار فرقتنا فهو لا يزال يحبني ويتمناني ويرغب في لقائي ولن يتخلى عني ولكن دون زواج؟

قال لي: أنت جميلة وذكية وألف شخص يتمناك، لكنها الظروف ومشيئة الله رب العالمين. شهقت بالبكاء وقلت له ودموعي تصرخ في وجهه: لا لست لي ولا أنا لك، أنا لست بائعة للهوى وجسدي لن تمتلكه بالأموال، أنا بائعة حب أخطأت المشتري، الدموع كتمت صوتي المقهور. وقلت له: لا تدّعي أنّها مشيئة الله بل هي مشيئة غدرك ونكثك للوعود.

قال لي أنه سيحررني من عبوديتي وسيصلح أخطاءنا برجولته، وبالطريقة التي أجدها مناسبة، وخيرني في أن يقوم بدفع كافة تكاليف عملية رتق غشاء بكارتي عند أشهر طبيب نسائية، ولكنني اخترت الطريق الآخر وهو إشهار علاقتي معه شرعاً، تزوجنا عرفياً في مسجد، وحصلت على

صك الزواج الشرعي الذي يبرر فقداني عذريتي، وعلى باب المسجد الذي عقد زواجنا، طلقني بالثلاث وعدت إلى المنزل وحيدة بعد أن حصلت على ورقة زواجي ويمين الطلاق.

بعد أيام أرسل إلي مع سائقه حقيبة قال أنها أغراضي، وحين فتحتها وجدت بها إضافة إلى حاجياتي مبلغاً محترماً من المال، ربما هي قيمة المرات التي ضاجعني بها، ولا أعرف كيف حسب أجرة المرة الواحدة؟

النسيان نعمة وهبها الله للإنسان، تدريجياً عادت البسمة إلى شفاهي، وبدأت بتناسي مأساتي، وساعدني "ناصر" خاصة وأنه خرج للتو من زواج فاشل مع فتاة رومانية فضّلت أن تخونه مع صديقها القديم، وكنت مستمعة جيدة لحكاية حياته الزوجية السابقة وجمعتنا أحاسيس ومشاعر الخيانة من الشريك.

أخبرني "ناصر" أن القدر جمعنا لكي يدلّنا على طريق المستقبل الواعد، ويجبر عثراتنا وينقذنا من المحن، تزوجنا عرفياً في أحد المساجد بعد أن وافقت والدتي على زواجنا وباركته، ولكني بقيت في منزل والدتي ريثما يقوم بتجهيز بيتنا الجديد بيت الزوجية.

في الفترة الأولى لم تتعدَّ علاقتنا الزوجية القبل انتظاراً لانتهاء تحضير منزلنا ومراسم الزواج، وما لبثت الحواجز أن ذابت بيننا فتعاشرنا معاشرة الأزواج وكنت أنتظر حفل الزواج والانتقال إلى البيت الجديد.

خلال هذه الفترة وجد لي "ناصر" عملاً براتب شهري جيد لدى أحد أصدقائه، وكنت سعيدة جداً بالعمل الذي ملأ وقتي وأبعدني عن الحاجة، كنت أقوم بتخليص المعاملات التجارية والجمركية، كنت سعيدة وفخورة بنفسي وبنجاحي، عشقت عملي الجديد الذي أخذ من وقتي واهتمامي أكثر من أي شيء آخر، والعائد المادي جعلني أقتني كل ما أحلم به، فكنت أرتاد المطاعم العربية، وأشتري ثيابي

من (المولات) وآخذ أمي وأختي إلى (السوبر ماركات)، وكنت دائماً أحلم ببيت الزوجية بالأسرة السعيدة والدفء العائلي والاستقرار وبأن أرافق زوجي وأطفالي إلى كل تلك الأماكن.

ومع مرور الوقت بدأ زوجي "ناصر" يقلل من اتصالاته معي ومن خروجنا معاً متعللاً بضغط العمل، وكنا نلتقي كل فترة في شقته نمارس الحياة الزوجية ويوصلني بعدها إلى المنزل.

بالصدفة وجدها علمت أنه بات من رواد الملاهي الليلية، وأن لديه صديقة دائمة رومانية تعمل كراقصة، وهي ترافقه دائماً. فاتحته في الموضوع فقال لي إنه رجل ويفعل ما يريد، وحين قلت له لكنها راقصة! أجابني جميع البنات راقصات وبائعات هوى أم هل نسيت نفسك؟! قلت له عليك أن تختار. أجابني لن أتغير.

هربت إلى وسادتي أخفي فيها ألمي وأبللها بدموعي وأدفن فيها كالنعامة رأسي.

في تلك الليلة تذوقت من جديد طعم المرارة بدلاً من طعم النوم والراحة، وباريت النجوم أرقها، ولم تفارق عيني أصدقاؤها الدموع، بكيت بحرقة وغصة وعادت إلي أشباح الذكريات بعد أن كنت قد دفنتها، وذبلت الحياة في نفسي.

الجميع لاحظ غروب الفرحة من أيامي، أمي أدركت مشاعري وعرفت مني أننا قد تشاحنا وربما وضعنا أول لبنة في طريق الانفصال، لأنه اختار الراقصة بدلاً مني، وطلبت منه أن ينقلني إلى بيت الزوجية لأنني بنت عربية، وأنّه يعرف عادات العرب وتقاليدهم، فأجابها بفتور: إن شاء الله خير.

والدتي بعد حديثها معه قالت لي: يا ابنتي كوني حذرة فهذا الشاب يتهرب من مسؤولياته، قلت لها في سري وممَّ أحذر؟ وعلام الحذر؟ وهل بقي ما يجب أن أحذر منه؟

وتمر الأيام ويصادقني الصبر والانتظار ولا شيء سواهما. حاولت النسيان وأغرقت نفسي في العمل وتفوقت على

جميع زميلاتي بالإنتاجية، ولم يعد بيني وبينه إلا أحاديث هاتفية مقتضبة وخالية من العواطف.

في أحد الأيام كنت في مهمة عمل في كوستنزا، وواجهتني بعض المشاكل هناك وكان لا بد من تدخل مدير الشركة "نبيل"، اضطررت للاتصال به وشرحت له الوضع بالتفصيل، وبعد ساعات كان في كوستنزا. تمكنا من حل المشكلة واضطررنا للبقاء حتى اليوم التالي من أجل استكمال المعاملة الجمركية، نزلنا في نفس الفندق، وفي غرفتين متجاورتين، وبعد العشاء ذهبت لغرفتي لأنام كنت منهكة جداً، دعاني لإكمال السهرة في أحد النوادي ورفضت مفضلة البقاء في غرفتي، رغم أني لاحظت انزعاجه.

في ليلة ذات اليوم حدث ما لا يصدقه عقل وما لا يقبله منطق! ففي منتصف الليل طرق "نبيل" باب غرفتي ففتحت له بعد أن ارتديت (الروب) فوق بيجامتي، دخل الغرفة وطلب بعض الأوراق وبدأ يطري على ذكائي، وحنكتي في حل الأمور، شعرت بأنه مخمور، وبدأ يقترب مني بشكل مقصود، فابتعدت عنه بشكل لا شعوري. وبدون مقدمات بدأ يسمعني كلام الغزل والوله ويصف جسدي وشعري وعيوني بألفاظ منمّقة. رجوته أن يذهب إلى غرفته ليرتاح وقلت له لا تنسَ يا أستاذ نبيل أنني متزوجة ومخلصة لزوجي وهو صديقك، ولا أحب سماع هذه الكلمات. ولن أخبر أحداً عن تماديك معي؟

ضحك بعصبية وقال زوجك... عبد الرحمن أم زوجك ناصر؟ وتابع أنا أعرف كل شيء عنك وعن نزواتك وعن زيجاتك الإسمية، من يوم الليلة على الجبل والتي قبضت ثمنها! إلى آخر يوم ضاجعت به زوجك الحالي، وتابع أنا أقدّر ذكاءك وجمالك وأنا معجب بك وبخبرتك الجنسية!

كلماته كانت ملحاً على الجروح، ذهلت وصعقت، والغصة لم تخرج من الحلق، والدمعة جفت في المآقي،

والذهول كان سيد الموقف. غبت عن الوجود وأنا أحدّق به مذهولة غير مصدقة، أسمع كلماته كمطرقة ثقيلة تهوي على مشاعري فتحطمها، اقترب مني ولامسني وأنا جامدة ذاهلة، بدأ بتقبيلي فانفجرت باكية وركضت مذعورة إلى الجهة المقابلة. لم يرحمني وتابع كلماته كخناجر تغرز في كرامتي وأحاسيسي.

أنا أفضل من الجميع وأغنى منهم وأكثرهم حرصاً عليك!! وأنتِ ستصبحين صديقتي المخلصة وسأحميك منهم ومن غيرهم.

صرخت به: يا أولاد الزانية... أهكذا تعاملون أختكم وتحرصون على شرفها، أهكذا تلعبون بابنة بلدكم ودينكم ككرة تتقاذفونها؟!

لم يستمع إلى كلماتي ووثب نحوي، قاومته والله العظيم وبكل ما أوتيت من قوة قاومته، ولكنه هددني بالفضيحة ومزق ثيابي، وضربني، كان قوياً وشرساً وثملاً، لم تثنه ضرباتي الضعيفة وتوسلاتي الباكية وعضّاتي غير المؤلمة، وبدأ باغتصابي. نعم اغتصبني ذاك السافل. كنت منهارة نفسياً فانهرت جسدياً وتمكن من جسدي وانهرت تحته، تركني سبية جارية مخلفاً علامات بطشه على جسدي.

ترك على الطاولة مبلغ كبير من المال، وغادر وهو يتمتم: "ألم يكن من الأفضل لو تجاوبت معي لانبسطنا نحن الاثنين". غادر بعد أن تركني كومة من الحطام.

هذه هي قصتي باختصار مع الشباب العرب... في رومانيا، شباب فقد دينه وشرفه وانتماءه وتقاليده، واستغل فتاة ركنت إلى أن للمسلم دين يردعه، ثلاثة ذئاب بشرية اتفقوا على افتراسي، لم يجدوا سوى ابنة بلدهم ودينهم لينهشوا لحمها، ثلاثة أصدقاء اتفقوا على اغتصابي وسلمني الواحد للآخر دون أي وازع أخلاقي وديني، يفاخرون بأنهم ذبحوني، يستحلون كل شيء فهم بدون دين بدون تربية وبدون

قيم وأخلاق، استحالوا إلى خنازير امتهنوا العهر. ولأن بعضهم قد أثرى في غفلة من الزمن فقد اعتبروا أن المال يبيح لهم المحرمات.

والغريب أن مجتمعهم اتفق على إدانتي وتكفيري وتبرئتهم وأصبحت ضحيةً في قفص الاتهام، فجميع من سمع قصتي كان يؤنبني ويعنفني ويتهمني بالضعف والبعد عن الدين، قالوا لو كانت مسلمة ملتزمة لما حدث لها هذا! قلت لهم البنت فقط لديها شرف لديهم؟ أليس للشاب شرف أيضاً.

أدرك أني كنت حمقاء، أعلم أني لست ملتزمة، ولا أفهم في الدين، ولكن أتساءل:

لماذا لم يحفظ لي زواجي الشرعي حقوقي، وتركني لعبةً بين أيديهم؟

لماذا يتفاخرون بما فعلوه وأنا أدفع الثمن؟

لماذا نزع المجتمع عني شرفي ومنحهم شرف اغتصابي؟!

❖ ❖ ❖ ❖

# سيّدتي الشّمس...
# أنا زهرة عبّاد الشّمس... فلا تغيبي

في طريقه من المطار إلى بيت الطلبة، بدت له بوخارست كمدينة غافية، فالأنوار مطفأة، والسيارات نادرة... انقبض قلبه من العودة إلى غربته ثانية، لكنه سرعان ما تذكر القوانين التي تمنع إشعال الأنوار ليلاً، وأن رومانيا تخلد إلى النوم باكراً، لأن يوم العمل هنا يبدأ مع الشروق. وفي الأسابيع الأولى من عودته استرجع "زيد" نشاطه وحيويته وبدأ بالتحضير لبدء سنته الدراسية. أسابيع مرت على عودته قبل أن يلتقي بـ"ميخائيلا"، فقد زارته معاتبة حين أقعده المرض.

ففي إحدى الأمسيات الخريفية خرج زيد بالثياب الصيفية المعتادة، لم ترحمه الأمطار والرياح الرومانية من جبروتها، فاستيقظ في صباح اليوم التالي محموماً، لا يقوى على الحركة، درجة حرارة جسده تحاول الوصول إلى الأربعين، لم تشفع له بنيته القوية على الهروب من مصيره، الفيروسات الرومانية وجدت في جسده مسكناً ملائماً تبيت فيه بضعة أيام، ولقنته درساً لن ينساه، اتصل زملاؤه بالطبيبة التي أجبرته على الخضوع للعلاج والراحة، وطبعاً اتصلوا بميخائيلا.

دخلت ميخائيلا غرفته، وعيناها تحملان نظرة عتاب ممزوجة بالشفقة والخوف، أحضرت له الشاي، وحضرت له الحساء، وساعدته على تبديل ثيابه المبللة عرقاً وسهرت بجانبه.

عن ذاك اليوم كتب زيد في مفكرته:
أرسلني الألم إلى ليل نجومه ذابلة
خطواتي تعانق ذرات التراب
مشيت حتى وصلت إلى حدود صباح يعلوه قوس قزح وحيد اللون
تركت خلفي حروفاً يتيمةً، شموعاً لأيامي المطفأة
وذكرياتٍ لفصول الخريف الأربعة في كل سنة من سنوات العمر
رحلت مع أسراب السنونو المهاجرة
أوراق الأشجار المصفرة بدأت بالهروب من على أغصانها
لمصيرها كأوراق ذابلة تمر بها خطواتي
لفحات الشمس اللاهبة الحارقة تودعنا
قرحات البرد الخريفي قادمة تلوح لنا من بعيد
غيوم أيلول حطت رحالها من جديد
الأرض جفت شراييها وتنتظر أن ترتوي من جديد
أشرقت شمس الحب من جديد
أحببت... رغم أني شربت كأساً خمرها سال من الجروح النازفة من عروقي
فأصبحت ثملا بالوجود
كم انتظرتك وأنت لا تأتين!
كم هو جميل شعور أن تمتلك في الغربة من يحنو عليك ويرعاك.
في تلك الأيام بدأ الحب يبني عرينه في غابات أفكاره. آما آن له أن يفيء إلى ظل، ويركن إلى ينبوع!
كم قوساً رسمت الشمس وهو يدور في الأرض وحيداً؟
استأذنته "ميخائيلا" تريد المغادرة، فأمسك بيدها الناعمة، وقربها من خده وقبلها بحنان وامتنان، قبلت جبينه، وخرجت مسرعةً بعد أن ارتدت الحمرة ثوباً على وجهها.

بمرور الأيام تجمعت وتكاثفت غيوم عواطفه، لتهطل أمطاراً على صحراء نفسه، وسرعان ما ألقى أسلحته مستسلماً أمام ميخائيلا، فاعترف لها بإعجابه وولعه الشديد بها، وأنه يتمنى لو كانت تبادله مشاعره الجميلة.

وعلى أنغام موسيقى فرقة البي جيز "هاو ديب إز يور لاف" بدأ حبهما بالتجذر عميقاً مع أول رقصة يضم بها جسدها المياس إلى حضنه، ويختمها بقبلة حارة من فمها.

كتب زيد في مفكرته عن هذا اللقاء:

الغيوم كالحياة تتشكل وتهطل معرفة وتتلاشى
قبلتها كما تقبل قطرات الندى تويجات وردة فتية
فأنهيت ما كان بيننا من صحارى الفراق
بعد زمن طويل من الوحدة والانطواء
أمتص رحيق الأزهار، عسل شفتيها ولم أرتو!
أجتر ذكريات الحب من ذاكرتي، وأتغذى على الحاضر، وأشتمُّ رائحة الغد الآتي...
حلقت معها فوق جميع الأجنحة، وصولاً إلى الفردوس
طرنا فوق كل قوى التمرد، وأريتها ذاتي الولهة
هتكت عذرية اللغة وانتشلت كلمات ضائعة في أعماق الوجدان
وأرسلتها ألحان حب عزفتها على إيقاعات دقات قلبي المتسارعة
سويعات من الزمن سرقتها من حياتي الرتيبة
تعطلت فيها كل ملكاتي... وأبقيت شعلة الحب متقدة تنير لي الطريق.

كانت المرة الأولى التي يتجرأ ويقبل فيها امرأة، ولكنها لم تكن الأخيرة، ميخائيلا لم تكن تدري حجم المشاعر والعواطف التي يخبئها لها، لكنها ومع الأيام أدركت أن هذا العربي يمتلك من العواطف ما يمكن توزيعه على نصف فتيات رومانيا.

اتفقا على اللقاء في عطل نهاية الأسبوع، تاركين وقتاً لدراستهم، وأن يعطيا الدراسة الأولوية في علاقتهما الناشئة، فقد اعتادا التفوق والنجاح في كل ما يقومان به، لذلك فقد اتفقا أن تكون العطل مناسبة للتخلص من مشاكل الدراسة وأعبائها، ورغم أنهما قد احترما هذه الاتفاقية لعدة أسابيع، إلا أن هذا العربي الأسمر الذي يمتلك عطش الصحراء حتى في رغباته، لم يكن يريد أن يحترم اتفاقاً عقد بموافقتهما، وقراراً صدر بمباركتهما كليهما!

فها هو يلح في الاتصالات اليومية على اللقاء، وها هي تحاول التملص من إلحاحه، لكن كم تعجبها كلماته على الهاتف، إن قوة التعبير والوصف قوية لدى أبناء هذه المنطقة!، ولا تدري أين يجد تلك الكلمات باللغة الرومانية، والصور والتعابير التي يستخدمها ،كأنه قد تتلمذ على يد ميخائيل ايمنسكو.

في إحدى الأمسيات اتصل بها، وجاء صوته حزيناً ولها، قال لها: ميخائيلا لا تدرين كم اشتقت إليك! اشتاق إلى رائحتك، إلى شفتيك التي تعلمت جمع الخوخ والعنب ورشف العسل منهما.

سألته: هل انت مخمور؟

أجابها: أنت خمر ككل نساء الدنيا، وأنا مدمن لأرتوي الخمر من كأس شفتيك، اشتقت إلى إكمال دروسي في تعلم الهمس والقبل، اشتقت للإبحار في عينيك دون خوف دون وجل...

أنا مغترب عن وطني وعنك...

العودة للديار صعبة فهل آتي إليك!

انتابتها نشوة من الاشتياق إلى أحاسيسه وعواطفه، فأغلقت السماعة وأخذت كتبها وغادرت إليه، فكان لقاءً لا ينسى، بدخولها غرفته عانقها بشغف وقوة، عناقاً حاراً أطفأ الرغبات والأشواق.

وبدأت أصابعه تسافر في شعرها وتتجول على مساحات جسدها، عنقها المرمري الأبيض يتثنى خجلاً، والموج الأزرق في عينيها يناديه نحو الأعمق فتهرب عيناه وجلاً، وعيناها خجلا.

تلتقي شفتاه بصدغها، وتهرول إلى لقيا شفتيها، وتتحدان وتغيبان في قبلة طويلة حارة تمتزج فيها الأنفاس وتختلط.

أصابعه تلعب بأزرار قميصها، فتردهما بخجل وحب وحنان، وتقوم أصابعها بالمهمة الصعبة، فينكشف القميص عن بطن بض أبيض، وثديين شهيين يختبئان خلف قطعة قماشية مخرمة.

تغوص لمساته في أمواج جسدها، وتنطلق متجولة في مجرات خلاياها، كحصان جامح ينطلق في سهول خضراء.

الشوق إلى تناول رمانتيها يجعلان يده تتسلل إلى الخلف لإطلاقهما من سجنهما، فيسقط القناع المخرم، تتناولهما بنهم عيناه فتصرخ الحلمتان الصغيرتان طالبتين من شفتيه إرواء ظمئهما، كالطير الجائع تنهال شفتاه عليهما لترتوي منهما وترويهما.

يضمها بقوة بين ذراعيه خوفاً من أن يفقدها، تلتصق أجسادهما، ويعصرها حباً، يستحمان بأمطار شوقهما، ويغسلان بالقبل أدرانهما، ويسافران إلى جنان أحلامهما، ما أجمل الأحلام حين يترجمها الواقع حقيقة!

نسيا نفسيهما، ونسيهما الزمان، تغيب العقول تاركةً للأجساد سطوتها.

باتا كالزهور أزدهاراً، وكأوراق الخريف خفةً، وكبهجة أشعة الشمس مرحاً وإشراقاً.

قطيرات العرق تنساب من جسديهما، والاحمرار والدفء يحتلان كل خلية من خلاياهما، خلاياه تصول في خلاياها وتجول، وتستكشف كهوفاً، تلجها بقوة، تغوص في بحور المتعة، وتكر وتفر، وتتقدم وتتراجع، وفي الأعلى وجهها

الملائكي يرحل إلى عوالم أخرى، فتبدو له كملاك مغمض العينين، بينما صوتها يصدح جميلاً بأعذب الآهات، وصدرها البض يرفرف اضطرابا كالحمامات.

تتمايل الأجساد رقصاً على إيقاع الشهوات، وترقص طرباً على أنغام الحب، وترتوي بعذب اللقاء، دقائق وانتهى كل شيء.

يصحوان بعدها من سكرة الوصال، مبتسمين، فرحين بما أوتوا من نعم وسعادة، بعد أن ذاقا لذة طعم الانتصار على رغباتهما، فأنجبا حباً انتصر على عقم الحياة.

الثامنة مساء ولا وقت لديهما لجولة أخرى ولا لحلم آخر، تودعه ويودعها قائلاً: كنت غير معقولة، وكل ما فيك لا يصدق.

على أنغام أغنية "رسالة من تحت الماء" للمطرب "عبد الحليم حافظ"، وبصحبة كأس الشاي، جلس زيد مبتسماً بعد رحيلها يستعيد ذكريات لقائه، محدثاً نفسه سأجعل من تلك الدقائق في الأيام التالية ساعات.

كم كان يتمنى لو أنه استطاع أن يطيل زمن الوصال، لكنها المشكلة التي تواجه كل عربي من بني جنسه!

أجمل رحلة على وجه الأرض حين يسافر الرجل والمرأة نحو بعضهما

رحلته معها بدأت في أوائل الشتاء
أول شتاء دافئ العواطف في رومانيا ينسيه
البرد والقر، الثلج والمطر، البروق والرعود.

هطلت الغيوم المتكاثفة في سماء أيامه والمحملة بعواصف الشوق ورعود الحنين، هطلت أمطاراً، وتدفقت أنهاراً روت حبهما.

رغب في محادثتها على الهاتف ليطمئن عليها، وليبثها شوقه، فاحتار كيف يبدأ! ماذا سيقول لها:

بونا سارا "مساء الخير"

حلمي الدائم
عبيري الساحر
نغمي الرنان
أمل مستقبلي
إشراقة نهاري
شمس الصباح
قمر الليل
بلبلي المغرد
أميرة الحب والحيرة
حبي اللا منتهي
ينبوعاً لا ينضب
بحري اللا منتهي
حياتي الأبدية
قصيدتي العذبة
روضتي الغناء
غابتي الخضراء
سياج حياتي المزهر
ربيع أيامي
ذات العيون البحرية
حبيبتي... نعم...
أفضل كلمة يمكن أن يبدأ بها"يوبيتا ما"...
إنها أسهل كلمة رومانية
وهو متأكد من صحة نطقها.

يرن الهاتف ولا أحدٍ على الطرف الآخر، ينظر إنها الساعة الحادية عشرة ليلاً، والرومان بطبعهم لا يردون على الهاتف بعد العاشرة، يغلق السماعة ويذهب إلى غرفته ليسهر مع ذكراها حتى الصباح.

وأخيراً تأتي عطلة نهاية الأسبوع، موعد لقائهما، كم كانت طويلة تلك الأيام القليلة، وكم كان يبدو بعيداً

الموعد، وما إن تلج الغرفة حتى ينقض عليها انقضاض نمر متوثبٍ على فريسته، ويمطرها بقبله، ويعانقها، وهي تذوب خجلاً وضحكاً: انتظر... فلدينا يومان للمرح، أحضرت لك بعض النبيذ المعتق، وأرسلت لك والدتي "صارماليه بيوريه دي كارتوف" قالت لي ربما لن تخرجا إلى المطعم لتجدا ما يسد رمقما.

النمر المتوثب في داخله تحول إلى أرنب، وحركته المرتدة بدت كسلحفاة، وبغضب ممزوج بالخجل والاندهاش سأل: هل أخبرت أمك عنا؟ هل تدري ما حدث بيننا؟

وشتت جوابها فكره: نعم... أنا أصارحها بكل شيء، وأستشيرها في علاقاتي العاطفية دائماً هي أختي الكبرى، أجد عندها النصح والمشورة.

وبحذر واستغراب يتابع: هل تعرف كل ما جرى بيننا؟

تتبسم وهي تصب النبيذ القروي: نعم هي تعلم كل شيئ، كل شيئ "توت... توت"، وتتابع مبتسمة وتعلم ما سيجري أيضاً خلال اليومين الذين سأقضيهما هنا.

تلسع وجدانه برودة قطرات اختلاف وجهات النظر بين مجتمعين.

يقترب منها متلعثماً... وهل أخبرتها أننا... أني... (يفكر في سره يبدو أنها تستدرجني بهذا الحديث لمعرفة نواياي، إذا كنت سأتزوجها أم لا) ويتابع ولكننا الآن ندرس... ولن نستطيع الزواج و...

تنظر إليه تبتسم: وماذا أيضا؟

أنا أحبك... ولكن الزواج طريقه وعرة.. و...

تعاتبه: ومن طلب يدك للزواج؟

يقول: كنت أفكر لو...

تقترب منه وتطبع قبلة على شفتيه وتعطيه الكأس ليشرب، نخب زيد وميخائيلا، نخب الحب الذي جمعهما.

في ذاك النهار حاول أن يثبت لها فحولة الرجل الشرقي، ومع تباشير الصباح كانوا قد انهوا الجولة السابعة، وآن لهما أن يستريحا بعد كل تلك المعارك.

ومع غروب شمس اليوم التالي استيقظا متواسدين، صمت الغرفة تقطعه أنفاسهما بين الحين والآخر، يخرج زيد عن صمته، اسمعي يا حبيبتي: أريد أن أخبرك قليلاً عن العادات والتقاليد في بلدنا؟ وشرع يحدثها عن المرأة، والحب العذري، والعلاقات المحرمة، وجرائم الشرف، وعفة الفتاة الشرقية.

بشغف كبير واهتمام بالغ، تابعته ميخائيلا وهو يتحدث وحين أنهى حديثه، أرادت بدورها أن تحدثه عن مجتمعها فقالت: أغلب سكان العاصمة بوخارست أتوا من الأرياف، ليستقروا هنا نتيجة عملهم، وفي الريف الروماني لا تزال بعض عاداتكم تسود، ولكن هنا في بوخارست وخاصة بعد الثورة الشيوعية، فإن الفتاة يمكن أن توصم بالتخلف إذا لم تحصل على عشيق لها قبل العشرين، فهذا يعني أنه لم يقترب منها أحد، أي أنها معقدة نفسياً، والمجتمع والأهل بشكل عام يودان لو أن الفتاة تقوم بعلاقة خوفاً من أن تصبح معقدة.

جدتي في القرية كما سترى تضع على رأسها غطاء "بيتيك"، ولكن أنا وأمي نلبس المينيجوب، وأنت يا زيد لم تكن أول رجل في حياتي، على الفتاة أن تجرب، ومن ثم أن تختار، وكذلك الشاب. لأن الزواج علاقة مقدسة، وحياة طويلة يجب أن تكون مبنية على أسس متينة.

الغريزة لا تكفي، لأن الوصال يقتلها، الأهم هو العلاقات الاجتماعية الإنسانية، لا الغرائز الحيوانية في إقامة مستقبل أي أسرة.

وتابعت ممازحة: لا تخشى، لن يأتي أخي ليقتلك، ولن تأتي أمي لتجبرك على الزواج مني، وأنا بالغة راشدة، ولست

قاصر، أعرف ما أريد، وأعيش حياتي كما أقرر أنا، وليس أحد سواي.

هاهو زيد يتعلم درساً آخر في العلاقات الاجتماعية في رومانيا.

تمر الأسابيع، وتزداد مشاعرهما ارتباطاً، ويزداد زيد فهماً للمجتمع الذي يعيش فيه بسلبياته وايجابياته، وتتغير نظرته إلى الأشياء بمنطق العقل والمحاكمة، ويبدا بالتعرف على جغرافية رومانيا وتاريخها، بعد أن بدأ يتفوق في دراسته أمام أقرانه، ويعود الفضل بهذا إلى الاستقرار العاطفي والنفسي الذي منحته إياه علاقته بميهائيلا.

يكتب زيد لميخائيلا:

عيناك جزر لجأت إليها أحلامي
دخلت بحور عينيك مستكشفاً
فشعتا شموس الغد الآتي
أنارتا لي طريقاً ضللتها
قلت لك سيدتي الشمس
أنا زهرة عباد الشمس فلا تغيبي!

❖ ❖ ❖ ❖

# موعد مع الخيانة..

يوم عادي... لا يميزه عن غيره من الأيام سوى أنه سيشهد لقائي الأخير بها.

وكعادتي وفي كل لقاء أحاول أن أستحضر بعض الخواطر الجديدة، لأعبر لها عن مكنون قلبي، مضيفاً بعض التوابل لمشاعري وأحاسيسي ليكتسب لقاؤنا نكهة المحبين وطعم العشق والوله.

"اشتقت إليك أيتها الحنونة الجميلة، وكنت أشتاق قبلك للطرف الآخر من الماء، فقد كنت بعيدةً ومجهولةً أيتها المتمردة الطليقة".

في الطريق إلى لقائنا المعتاد، يجتر الفكر ذكريات تعارفنا ويلوكها بسعادة. على درجات العمر صعدت أمامي من الطفولة إلى الشباب.

رأيتها تورق وتزدهر وتمتلئ ثمارها بالأنوثة. وبمرور السنين ازداد نهمي لتذوقها واستحواذها، ونمت أحلامي بوصالها، إلى أن أتى اليوم الموعود، يوم الاعتراف، أذكر حينها كيف أن القلب طار فرحاً يريد الخروج من بينٍ الأضلاع، ليحلّق من السعادة. الكلمات تسابقت منسابةً عذبةً لتصل إلى أسماعها. المشاعر والأحاسيس أكسبا خدّيها الاحمرار. عيناها تهاوتا إلى الأرض خجلاً وحياءً. تعددت

لقاءاتنا وتحولت قصتنا شعراً على الدفاتر، ورسماً على القلوب، ولحناً في أغنية حياتي. كتبت لها ما لم يكتبه غيري، وما لم أكتبه أنا لغيرها. ذات يوم أتتني رافلة في ثوب البراءة، وانهارت أمامي باكيةً معترفة بأنها خاطئة، لا تستحق كل هذا الحب.

حدثتني عن بحار هائجة، وأمواج قاتلة، وسفن غارقة. حدثتني كيف حازت على الإثم والخطيئة في لحظة تهور عابرة، وكيف أنها تبحث عن حب يدفئها، وعقل يفهمها، وقلب يسامحها. أحلامي الموءودة تناثرت على ضريحها أفكاراً سوداويةً. تحطمت الآمال بمطرقة الآلام وبدا المستقبل ضبابياً.

حدثتني عن آهاتها وأحزانها، عن الندم والألم، عن الغفور الرحيم، عن التوبة النصوح.

على باب حبها وقفت مشدوهاً كطير جريح يرتفع ويهبط، ولا يقوى على الدخول. في ليلة ذاك اليوم تعرفت على الأرق وسهرت معه حتى مطلع الفجر. في اليوم التالي جمعت الحنان والحب، الذكريات الجميلة، هتكت عذرية الفكر واللغة، وخاطبتها: قلت لها:

"من يحب لا يكره، ومن يملك دفء الحب لا يهمه قسوة وبرودة العذاب، ورب العباد غفور رحيم، فكيف وأنا عبد من عباده؟

لقد أدمنت حبك، فلا مهرب من الإدمان. لنحرق مراكبنا المتهرئة، ولنبحر سوية بمركب جديد، مبتعدين عن شواطئ المعاناة والآلام، لنبحر بحثاً عن شاطئ جديد للأمان، وسأكون طبيبك المداوي، سأشفيك من أمراضك، وأطلقك من قفص الماضي" يومها تعانقت أفكارنا، والتحمت شفاهنا، والتصقت أجسادنا.

مرّ أكثر من شهرين، ومع كل لقاء كنا نبتعد عن الآلام والأحزان، ونقترب من السعادة والآمال. وها نحن اليوم نلتقي في يوم عادي لا يميزه عن غيره من الأيام سوى أنه سينحت في الذاكرة مكانه بين الأيام.اليوم كانت ترتدي وعلى غير العادة وشاحاً أسود يزين رقبتها البيضاء.

جلسنا على زاوية المقهى الذي سيظل شاهداً على قصة حب لم تكتمل.

عيناي وكالعادة كانتا تتأملان وجهها وتعانقان كل خلية من خلاياها، وفي غفلة من الزمن التفتت إلى الطرف الآخر فابتعد الوشاح عن آثار جريمتها، علامة الخيانة الحمراء على رقبتها. نظرت إليّ محدقة بتحدٍ، خفقات قلبي ازدادت، جملتي العصبية تحفزت، بوصلتي الداخلية فقدت الاتجاهات. طلبت منها خلع الوشاح برقة، ومن ثم بلهجة آمرة نزقة، تحررت العلامة وخرجت من تحت ظلام الوشاح الذي فرض عليها، فبدت واضحةً تحت ضوء النهار. سألتها: من زرع هذه العلامة هنا؟

وبلهجة امتزجت فيها مشاعر الغيرة مع المزاح والحيرة والتساؤل تماديت متسائلاً: "هل التقيت به"؟

إيماءة مكسورة الوجدان كانت كصاعقة انقضت على مشاعري وكقنبلة نووية تنفجر في رأسي.

انهالت الأسئلة بعدها: "كيف؟ ولماذا؟ ولم؟ وأين؟ ومتى؟"

عذرها الأقبح من ذنبها، ردها اللا إنساني، اللا مبالي، لا يزال يتردد على أسماعي كمعزوفة جنائزية. أجابت بهدوء إجرامي: "طلب مني موعداً، لقاء وداعٍ، وألحّ رفضت. فلمّح لي مهدداً أنه سيكون لقاء الوداع فوافقته خوفاً

وخشيةً... تحدثنا وتصافينا، وقبلني قبلة أخيرة تاركاً تلك العلامة. ولكن أقسم بأغلى ما أملك أن كل شيء انتهى بيننا، كان لقائي الأخير به".

وانهارت دموعها، لا أدري أكانت دموع خوف؟ أم دموع ندم؟ أم كليهما؟

قلت لها مودعاً: "نعم، كل شيء انتهى" مساء الحزن، مساء الغدر والخيانة، وصمتٌ، أغلقت فمي، وجعلت عينيّ تصرخان. اليوم تعرفت على الغدر، ولأول مرة في حياتي، اليوم اكتسبت صداقاتٍ جديدة. ها هي الخيانة تصادقني، وها هو الأرق صديقي يعود إلى زيارتي، وها هي الليالي تسامرني، فأباري نجومها بالأرق.

اليوم كتبت لها آخر رسائلي التي لم تستلمها على أنغام أغنية (لست قلبي) لعبد الحليم حافظ كيف يا قلب ترتضي طعنة الغدر في خشوع؟ وتداري جحودها في رداء من الدموع؟ لست قلبي وإنما خنجر أنت في الضلوع.

كتبت لها: "لا، لست لي ولا حبك لي. أنت ورد ما به رائحة. لونه الأحمر أدمى مقلتيّ.

❖ ❖ ❖ ❖

# أبو المجاري...

النهار يودع الشمس، والشارع يتحرك تحت مظلة من سحب الشتاء الداكنة الهاربة في كل اتجاه.

المطر خفيف رقيق ناعم، أنفاسه السريعة المتلاحقة تغسل الأرض، الإشعاعات الأخيرة من الشمس الغاربة تودع الرصيف المبتل، تزحف خارجةً من النافذة بعد أن وجدت لمسة من الدفء بجانب الموقد.

نظراته من النافذة تراقب عجلات العربات وهي تلتهم أرض الشارع الزلقة بنهمٍ، متجهةً إلى هدف لا تدري به. يلتفت إلى نفسه مخاطباً إياها قائلاً:

انظري إلى إطارات تلك الآليات كيف تدور متجهةً إلى هدف لا تدركه؟

ما أشبهها بأيامي، عربتي يقودها الفقر والطريق مليء بالمطبّات والحفر.

منذ سنين أنهى "عمرو" دراسته الجامعية. حصاد العمر حصاد عشرين سنة من الدراسة والعمل والكد والتعب، آمال بعد التخرج ونيل الشهادة الكبيرة، بداية تحقيق الأحلام الكبيرة، الخطوة الأولى على أتوستراد المستقبل.

سنتان كانتا كافيتان لتحيل غابة أحلامه إلى حقل مهجور إلا من الأشواك. لا تزال البيوت خاوية، والجيوب

أيضاً، ولا يملك حتى الآن الوسيلة لِملئهما. وما يزال يبحث غير واجد في رأسه عن مكان يجد فيه الحلول. ولا يزال يتساءل ما هي المشكلة؟ وأين يكمن الخطأ؟

شكله مقبول، كفاه بلا قيد، ولسانه لا يعارض. مسموح له بزيارة أهله في سجونهم ومقابرهم ومغترباتهم. حين حاول تعلم السباحة ليطفو فوق مشاكله لاحقته أمواج الفشل العالية، وفي كل يوم كان يدفن حلماً جديداً من أحلامه البسيطة المستحيلة، سنتين فقط بعد اليوم الكبير كانتا كافيتين لوأد جميع أحلامه، أحلامه كانت تستقل كل ليلة قطاراً بدون عودة، وكل ما استطاع فعله هو أن يطوّر تلك الأحلام إلى كوابيس.

فجأة أشرقت على حياته وأحبها، وهو الفعل الوحيد الذي يتقنه، رغم اضطهاد الحب واعتقال الأحاسيس ومراقبة العواطف.

أحبها، ومن أبواب المجهول إلى عينيها كانت أولى رحلاته، عيناها جزر لجأت إليها أحلامه في الليالي الممطرة.

حولته شمسها إلى زهرة عباد الشمس، فبات يخشى غروبها.

"ربى" المدرّسة كانت تخبئ في بحور عينيها الزرقاوين مئات الأسماك المفترسة، كانت كالقمر يسرق الضوء من سيقان الأشجار ويوماً آخر من حياته، تقدم لها ورفضته، رفضت شهاداته الورقية، التي لا تغني ولا تُسمن، فهي تبحث عن زوج يرفعها ويريحها، ولا تضم قواميسها كلمات مثل التضحية والإيثار والكفاح. وخلال أشهر كان حفل زفافها على صديقه "عبد الجبار".

"عبد الجبار" صديق الطفولة الفاشل دراسياً "أبو المجاري" كما كانوا يستهزئون به، كان بارعاً في إخفاء ذيله، ودائماً يفتخر بالقرون التي تزين رأسه، ولا يري مخالبه إلا لأصدقائه وحتى إن فتك بهم فسيسامحونه، فهو صديق يحق له أن يؤذي وقت الضيق.

أبو المجاري تزوج "ربى" المدرّسة أجمل فتيات الحي، ويملك اليوم منزلاً وسيارة و"ربى"، فعلى ما يبدو أن المجاري هي الطريق الوحيد لتأمين المستقبل هذه الأيام.

قرر "عمرو" الهروب في الهزيع الأول من الليل، وحمل في ترحاله أطياف أحلام خطفتها الأيام، وفي القلب دمعة من غبار الهزائم، وفي النبض لا تزال تشتعل الرغبات، وفي الأعماق دبيب التصحر.

أحلامه تناثرت كأوراق خريفية صفراء وتداعت كمبنى عتيق، رحل عبر شاطئ الحزن ولم يبالِ بطحالب الخوف وأشباح الهزيمة، ومطرقة المأساة التي هوت على آماله كحوافر خيول جامحة، لم تتمكن بحور البعد من أن تطفئ اللهيب في الوجدان. الشمس لا تزال مطفأة، وهو كطائر مهاجر يسافر مرغماً بعيداً عن أرض المولد، يقطع المسافات، يطوي الأزمنة، يحوم حول الأمكنة، يستقر برهةً يتعرف على ما حوله، وحين يكتشف لذة طعم الاستقرار يحزم أمتعته مغادراً إلى مجهول جديد.

حرم نفسه من الطفولة ومن المراهقة ومن الشباب، حرمها من الصحة ومن السعادة، ومن الأخوة والأبوة، حرمها من العطف ومن الحب، ومن كل ما هو جميل وجذاب وممتع. الزمن يترك علاماته على وجهه. وهو ما يزال يبحث عن المجهول.

مـا أقسـى الأيـام الراسمـة علاماتهـا علـى الوجـوه؟ في ترحاله ما يزال يبحث عن السعادة عن المجهول عن التحدي عن الوجود عن المفقود.

الفوضوية تنساب منسلةً من كل لحظة في عمره. نفسه المهاجرة بحاجة إلى من يعيد ترتيب محتوياتها وينظمها.

في يومٍ ما قرر الهجرة، الهروب، الرحيل من شباك الواقع، فما أسهل الهروب وما أصعب المواجهة.

في كل يوم تشرق شمس جديدة على كل العالم، أما هو فلا يزال مغتربـاً في ملكوت الظلام، بعد قطع تلك المسافات في رحلته الأبدية لازال يعيش على أمل أن هناك حياةً بعد الموت، ويتساءل هل هناك حياةٌ قبل الموت؟

❖ ❖ ❖ ❖

# يوم العيد..

تاريخان مميزان في غربته:

الأول هو تاريخ حصوله على تأشيرة الدخول إلى رومانيا، والآخر هو حين سيعود منها محملاً في تابوت.

في طرق الهجرة إلى الشمال، والعودة إلى الجنوب، هناك الكثير من الأحلام والانتماءات المدفونة. وعلى قارعة تلك الطرقات، تغيرت حياته وحياة الكثير من أصدقائه، وربما حياة مئات الألوف من الشباب المهاجر.

في الوطن كان السفر إلى الخارج حلماً له مذاق مميز ونكهة خاصة تطعم جلساته مع الأصدقاء حين كانوا على مقاعد الدراسة.

الهجرة بالنسبة لهم كانت طموحاً، تحدياً، هروباً، أملاً، وخروجاً عن المألوف.

اليوم تفصله سنوات طويلة عن هذا الحلم الذي تحقق له يوماً، وكانت السعادة والزهو والأمل حينها تفرش له طريق الغربة بالورود والرياحين.

حضر "منير" إلى رومانيا قبل أكثر من خمسة وعشرين عاماً بهدف الدراسة التي أتمها بنجاح، وعاد إلى مغتربه في رومانيا بعد الثورة ضد الحكم الشيوعي.

عمل في مجالات عدة، واستطاع أن يؤسس عملاً تجارياً افتخر ببنائه ونجاحه، ومع كل صعوبة مادية،

أو نكسة صحية، أو مشكلة اغترابية، كان يفكر بالعودة إلى الوطن، وفي كل مرة كان يقول لنفسه:

"قريباً سأعود، فقد مللت من الغربة والوحدة، فأنا غير متزوج وأحلم ببيت وعائلة وأطفال في الوطن".

ومضى قطار العمر وعبر محطاته حقق أحلامه بالدراسة والشهادة الكبيرة والبحبوحة الاقتصادية، ولكنه مايزال ينظر بعين الحنين إلى منبته وأرض الأجداد، يشتاق إلى التراب الذي منه أتى وإليه سيعود. هناك بنى منزله وأثثه. وهناك وضع تحويشة عمره.

الغربة بالنسبة له هي المقصلة التي تفصل الرأس عن الجسد والقلب.

القلب بقي معلقاً هناك في الوطن، والعقل هنا يتعذب من أجل القلب، وتتقاذف هذا الجسد المقسوم أمواج عاتية لا يمكن مقاومتها، هي أمواج الحيرة. صراع يومي ومعركة مستمرة مازال العقل ينتصر في جولاتها ويبقيه في غربته التي تحولت بمرور الأيام إلى وطن ثان.

الأعياد تعتبر من المناسبات غير السعيدة على الإطلاق، فمن خلالها يشعر "منير" بعزلته، وتتجذر غربته وتنكشف مساوئها، فيلمس جراحه القديمة دون أن يتألم.

في أمسيات تلك الأعياد يجمع منير حقائب الذكريات ويمضي راحلاً بالفكر إلى الورق، يهاجر عائداً في مخيلته إلى الوطن ليمضي العيد مع أهله وأصدقائه هناك.

ولكن هيهات أن يشفي شبق الحنين بضع كلمات وشريط ذكريات، فالعلاقة بين الحنين والذكريات هي علاقة حب بين فتاة عذراء، ورجل شيخ في خريف العمر. الأولى لا ترويها كل ينابيع الحب في العالم، والثاني متردد مرتعش في كل خطوة من خطواته.

صباح العيد يجتر "منير" ذكريات الطفولة، فيتذكر العائلة حين تجتمع، وزيارة الأقارب والألعاب والحلويات

والعيديات، وبعد أن يتحدث مع أهله صباح العيد مهنئاً، تؤلمه لسعات الفراق فيمتطي صهوة أصوات النحيب وينطلق في سهول البكاء، بكاء من الأعماق هو اصدق أنواع البكاء.

للعيد ملامحه في حياة العرب هنا وخاصة لدى العائلات العربية المغتربة، أما بالنسبة له فالعيد مجرد مناسبة لرفع أعلامه المنكسة على مباني وحدته وغربته.

كل الأمطار الهاطلة في الغربة لا تستطيع أن تغسل غبار الحزن المتراكم نتيجة الفراق، وكل الثلوج لا تستطيع أن تحول لون سواده إلى البياض الناصع، فالغربة ليست غربة الجسد فقط بل هي غربة الروح والقلب والحيرة والضياع.

هنا من الصعب العودة إلى مرحلة الطفولة فالنطق يتعلمه الإنسان في أولى سني عمره ولا يمكنه أن يبقى طفلاً طول العمر.

قبل شهرين أصيب "منير" بوعكة صحية ألزمته المشفى، فوجد نفسه من جديد وحيداً لا أباً ولا أماً و لا أخوة يطلّون عليه. كانت الدمعة والآهة رفيقه الدائم. الأصدقاء من الجالية العربية على قلتهم لم ينقطعوا عن زيارته، وكان كلما ربت أحدهم على كتفه يبكي كالطفل. ما أصعب المرض في الغربة!

بعد انقضاء الفترة الحرجة شعر "منير" أكثر فأكثر بحاجته إلى الزوجة والأهل، فخابر الأهل وحادثهم عن رغبته بالعودة والزواج.

ردة فعلهم كانت غريبة جداً، فقد أحس من كلماتهم أن عودته إلى الوطن مشكلة حقيقية. وما أكد أحاسيسه اتصالاتهم المتكررة غير المعتادة وأحاديثهم محاولين ثنيه عن العودة شارحين له مساوئها.

لقد اكتشف فجأة اضمحلال أهمية حضوره وأدرك أنه كان طائراً مهاجراً يبحث عن الدفء فلم يواجه غير

البرد، وعلم أنه قد سقط بهجرته من عشه إلى الشقاء والوحشة.

شعر بأنه بنيان عتيق تتهاوى أحجاره بمرور الزمن ولن يلبث إلا وأن يصبح حطاماً. قرر "منير" بعدها عدم التفكير ثانية بالعودة.

يقف اليوم على عتبة الأربعين ليجد أنه مدمن على الغربة، وأن البقاء هنا هو الخيار الوحيد المتاح له دون زواج، دون عائلة، دون أطفال، وأن الأموال التي جمعها من أجل البحبوحة في الوطن استهلكت شبابه وصحته، ويبدو أنه سيصرفها لاستعادة الأخيرة.

يشعر اليوم أن رائحة النجاح التي مايزال يسير باحثاً عنها، مصدرها كان على الدوام أمام عينيه، وبأنه كان يدور في حلقة مغلقة دون توقف.

الأيام متشابهة وقطار العمر يمضي دون توقف في محطة واحدة ليستريح. علم أن الأمس بات حلماً بذكريات لا يمكن استعادتها، والغد رؤيا لآمال وأمنيات لا يمكن لمسها، وما بين الحلم والرؤيا، أضاع أيام العمر الذي يبكي أفوله.

"منير" هو أحد الموجوعين من الغربة. بعض أصدقائه ذاب في المجتمع الروماني وخلع عباءة شرقيته على باب المطار فارتاح وأراح. وآخرون بين سماءين وبحرين ماتزال تعصف بمراكبهم أمواج من مشاعر الخوف والحيرة والقلق والحنين إلى الوطن والضياع في بلاد الغربة. هؤلاء هم الضحايا، والجلادون هم أصحاب القرار في الحكومات العربية التي لا تراعي الظروف المعيشية لمواطنيها، مما يضطرهم للسفر والهجرة، فالفقر في الوطن غربة.

❖ ❖ ❖ ❖

# يوم في العمل..

تستيقظ الشمس معلنة بدء يوم جديد، أشعتها تتسلل بخفة من النافذة فتصل إلى سريره، يصرخ جرس المنبه، يداه تبحثان عن طريقة لإسكات هذا المزعج، عيناه تقاومان ضوء النهار، قدماه تقودانه إلى الحمام. الفرشاة تلعب بين أسنانه. الماء يتحطم متناثراً على وجهه. ثياب النوم تغادره لتكمل أحلامها على السرير. إبريق الشاي يجلس إلى النار. فكاه يمضغان ما تيسر لهما من الرفوف والثلاجة.

يستيقظ عقله من سكرات النوم ويبدأ بالتساؤلات: هل سيتمكن اليوم من حل مشكلته؟ هذه المشكلة تؤرقه منذ أيام، ولكن إلى متى سيستمر بالهروب من هذه المشاكل؟

قبل سنوات لم تكن هذه الأمور الحسابية تزعجه. كان الجميع هنا يعمل بحرية ودون ضوابط وقيود. اليوم تغيرت المعادلات. اليوم أصبحت الموازنة بين التكاليف والإيرادات متعبة، ومعادلة البقاء في السوق أصبحت صعبة الحل في ظل هذه الضرائب المتزايدة بمتوالية هندسية.

"أعانني الله على هذا اليوم" هي العبارة التي تمتمتها شفتاه قبل أن يتعانق مصراعا باب شقته.

يضمه المصعد، ويهرول كالعادة خارجاً من المصعد نحو باب العمارة الرئيسي هرباً من الروائح المزمنة لغرفة

القمامة التي تحضنها العمارة، والتي بدأت تخف حدتها مع دخول شهر أيلول/سبتمبر.

تستقبل وجهه نسمات باردة اشتاق إليها بعد صيف حار اعتاده في بلاده. يدلف كله إلى السيارة بعد أن يعطل إنذارها.

وعلى أصوات الموسيقى وهدير المحرك وضجيج الشارع يتحرك جسده نحو المكتب، ويبحر تفكيره في خيالاته.

ما ذنبه إذا كان الفساد لغة العصر، والطريقة الوحيدة لاستمرارية الربح السريع؟ بل كيف يمكنه أن يلتزم بمعادلات صممت لكي لا يلتزم بها؟

صحيح أن الخط المستقيم هو أقرب الطرق، ولكن من اعتاد السير في الطرق الملتوية سيتعثر في الطريق المستقيم.

وكما قال له أحد المهمين "الورقة البيضاء إذا حافظت على نقائها أصبحت فارغة".

مطب ضخم يجعل سيارته تئن وتتوجع، فيوقظه أنينها من تأملاته.

يسب ويلعن لأنه أنفق ما أنفق على إصلاحها في الأمس، وأيضاً بسبب هذه الطرق اللعينة التي تزداد رسومها وتزداد حفرها بشكل مطرد.

ولكن رسوم الطريق ليست الرسوم الوحيدة التي يدفعها ولا يستفيد منها. كثيرة وكبيرة الرسوم لتي يجب أن يدفعها، ناهيك عما يسمى رسوم ما تحت الطاولة. لو كان يلتزم بدفع جميع تلك الرسوم، لكان ميزانه التجاري يتأرجح صعوداً وهبوطاً في الأرقام السالبة.

تقترب منه العمارة التي تضم مكتبه رويداً رويداً وما تلبث أن تبتلعه.

كم شيدت أبنيةً وجسوراً وطرقاً في هذا البلد!

خبراء وفنيو الأمس تحولوا إلى عمال في جميع دول العالم.

والعمال تحوّلوا إلى مشاهدة المسلسلات الدرامية. حركة البناء تحجمت من الطرق والجسور والمصانع إلى بناء الفيلات وتحديث الشقق.

عيناه تلتقيان بعيني مديرة مكتبه، فتتبادل الشفتان التحية الصباحية، وتضيف لقد أتوا باكراً، وهم ينتظرونك بالداخل.

"أعانني الله على هذا اليوم" يقولها وهو يدخل مكتبه متصنعاً الابتسامة.

ينتظرونه ويحيطون به كما لو أنهم جدران لقفص اتهام مزمن.

يبدأ حواراً جديداً اعتاده ودرس خطواته. يتحدث معهم عن الطقس وتقلباته، عن السياسة، عن المرأة والاقتصاد، عن متغيرات السوق والتضخم، وأخيراً عن مشكلته وطرق حلها.

تدور عقارب الساعة برتابة وانتظام متلاقية متباعدة، وبعد اللقاء الخامس يتهلل وجهه فرحاً.

حاجز جديد تمكن من القفز فوقه. ولكن إلى متى سيظل يقفز فوق الحواجز؟ وهل القفز فوق المعادلات سيظل مأموناً؟

إنها مباريات للقفز لمن أراد البقاء في الملعب، أما من اختار الانسحاب فلا مكان له في هذه اللعبة ولا جوائز.أن تكون أو لا تكون هذه هي اللعبة. والغاية تبرر الوسيلة.

في طريق عودته تختبئ الشمس التعبة وراء الأبنية، بينما تحاول سيارته جاهدة أن تجد لها ممراً بين الآليات المتزاحمة المتصارعة. أعصابه المرهقة تجاهد لتقفز فوق تحدٍ من نوع آخر هو تحدٍ مع الصبر.

يصل أخيراً منزله، فيهرول الحذاء التعب هارباً من قدميه. يتهالك الجسد على الأريكة. عيناه تتجوّلان بين قنوات التلفاز فتأخذه سنة من النوم. يحلم بنفسه طائراً محلقاً فوق كل الآهات.

وهكذا تمر أيامه كالشموع، تنطفئ واحدة تلو الأخرى، تاركةً خلفها خطّاً طويلاً من الظلام. تنطفئ شمعة اليوم بينما هو يغطُّ في سبات عميق.

❖ ❖ ❖ ❖

# رسالة أمّ لولدها..

تسع عشْرةَ سنةً مرت عليٍ زواجي. تسعة عشَرَ ربيعاً من عمر ابنتي سارة. تسعة عشر حولاً وأنا بعيد عنها. قبل أيام من عيد زواجي التاسع عشر هاتفتني وحادثتني، قالت لي:

"اشتقت إليك، أريد أن أسترجع معك أيام زمان، أريد أن أستمع إلى أحاديثك، أريد أن ألمس بأناملي وجهك وأقبل وجنتيك، أريد أن أشتم رائحتك".

أغلقت السماعة ودموع الشوق في عيني تبحث عن مهربٍ. أبحرت في محيط الذكريات مبتسماً حيناً، عابساً أحياناً. هي اليوم تحتاجني وتريد أن تراني.

دعوتها غريبة فوالدتي لم تعتد أن تهاتفني، وأحياناً تمر شهور لا تتحدث فيها معي. اعتادت أن أتصل بها بين الحين والأخر، فقد كانت تخطر على بالي في كل مرة يعاندني بها "سامر"، فأذكر كم كنت قاسياً حين كنت أعاندها، فأخابرها لأبث لها محبتي وأطلب دعواتها وأستمع لصوتها وهي تدعو لي بالرزق والتوفيق.

بعد أن أغلقت السماعة انتابتني الشكوك وحلقت في سماء مخيلتي، فاتصلت بأختي المتزوجة أشاركها شكوكي، ومن ثم اتصلت بابنة عمي، وابن خالتي. الجميع قالوا: "تعلم أنها مريضة وكبيرة في السنّ. سنعلمك حين تحين الساعة".

لاحقاً علمت أنها وفي أيامها الأخيرة خاضت معركة غير متكافئة مع الألم. حاربته بصمت.

قالوا لي أنّها في لحظاتها الأخيرة كانت تعارك ملاك الموت، تريد أن تمنع عنه أغلى ما تملك، وكانت تواجه الموت بسبابتها موحدة ربها.

وأخبروني أنها لم تزعج أحداً برحيل روحها، فقد استسلمت بصمت في معركتها الخاسرة حين قبلت أن تستبدل الألوان بلون واحد هو لون الظلام.

لم تزعج أحداً، فقد أغمضت عينيها وغادرت راسمةً على وجهها علامة الرضا والاطمئنان.

قالوا لي أنها كانت تبتسم موتاً كما لو أنها نائمة وتحلم أحلامها السعيدة. أحلامٍ رؤيتك ومعانقتك وضمك كما كانت تفعل حين ربتك صغيراً.

لم تنسَك، صورتك بجانب سريرها كانت آخر ما وقعت عليها عيناها قبل أن تغادر.

الحزن صديق مخلص رافقني في دروب حياتي ولم يتخلَّ عني حتى في أوقات الفرح. دموعه دائمة الهطول على حقول الحزن المزروعة على الخدود ترويها وتبقيها نضرة.

يشع الحزن من النفس ومن القلم ومن الوجدان. اليوم تحول كلي إلى منبع للأحزان، الحزن أصبح سيداً سيطر على كل جوانحي وانفجرت الغصة دموعاً، وتحولت الدموع إلى أنهار تحطم كل السدود التي تعترض طريقها.

اليوم استلمت آخر رسائلها، وصلتني بعد أشهر من وفاتها كتبت فيها:

ولدي الحبيب...

ربما تكون هذه رسالتي الأخيرة لك، فأنا أعتقد أن الوقت قد آن للفراق. ولكنني أودّع حياتي وأنا سعيدة بأنك كنت أغلى إنجازاتها.

في الآونة الأخيرة كبر اشتياقي لك، وددت فقط أن أودعك، وأنٍ أطبع قبلتي الأخيرة على خدود أغلى ما ملكت، فهاتفتك آملةً في آخر وصال.

استمعت إلى صوتك كآخر لحن، وانهارت دموعي حين علمت أن مشاغلك وظروفك لن تسمح لك بالعودة إلى جذورك، وأن أمنيتي الأخيرة لن تتحقق.

يومها حزنت وبكيت، ولكن في اليوم التالي استيقظت وأنا أشعر بالرضا لأنك لن تأتي. حدثت نفسي بأنكِ لن تأتيٍ لأنك تحبني، ولا ترغب أن تراني في آخر أيامي ضعيفةً وعاجزة...

فقد اعتدت على أن أكون قويةً معطاءةً سنداً لك ولإخوتك وقت الشدائد، واعتدت على أن أرعاكم لا أن ترعوني.

كل شيء لم يعد كما كان يا ولدي، فأنا أتحرك بصعوبة، وأقوم بمشقة. فالزمن نال منيٍ، والعجز سيطر على أعضائي كلها، إلا قلبي فلازال شاباً ينبض بحبك، منذ أن حملتك حين كنت تقطن في أحشائي.

من على فراش الموت أكتب لك لأقول: بك سأقهر الموت، ولو غاب جسدي فأنت ستظل امتداداً لبقائي، وعبرك أنا سأستمر، فقد أورثتك خلاياي، ومنحتك ذخيرة معرفتي.

هكذا نحن بني البشر حين نكون صغاراً نسابق الزمن لنكبر، وحين نكبر نتمنى لو نعود صغاراً. نضيع صحتنا لجمع المال ونصرفه لنستردها ثانيةً.

أكتبِ لك يا ولدي لا أقول: ما اعتدت سماعه منذ نعومة أظفارك... أكتب لأخبرك أني أحبك كما تحب كل أم ولدها. يا ولدي لن تستطيع أن تجبر أحداً على أن يحبك، ولكنك تستطيع أن تجعل نفسك محبوباً، تستطيع أن تطلق

على نفسك ما تشاء من صفات وألقاب ولكن ما يلتصق بك هو ما يعترف به الآخرون.

أعلم أنك في مغتربك تحارب ساعياً لكي تصبح غنياً، لذلك أقول لك: الغنى هو غنى النفس، فالغني ليس من يملك أكثر بل هو من يحتاج أقل.

الأسد لم يصبح ملكاً للغابة لأنه يزأر ولكن لأنه عزيز النفس، لا يقع على فريسة غيره مهما كان جائعاً يتضور.

لا تغرك يا "مازن" الحياة فهي قصيرة مهما طالت، والدار التي تسكنها بعد الموت هي التي تبنيها قبله.

اكتشفت يا بني أن أعظم فضيلة في الحياة هي الصدق. المتحدث الذي لا يسمع ثرثار، والمعلم الذي لا يتعلم جاهل، أما الإنسان الذي يأخذ دون أن يعطي، فملعون ملعون.

لا تتوسل لنذل، يذل ويحقر.

لا تشمَتْ ولا تفرح بمصيبة غيرك.

بعين النحل تعوَّد أن تبصر فلا تنظر للناس بعين ذباب فتقع على ما هو مستقذر.

لا تصدق كل ما يقال ولا نصف ما تبصر.

لتعلم أنه في البشر نسخ من الحرباء تلون جلدها بلون المكان.

إذا أردت أن تكتشف صديقاً سافر معه، فالسفر يسفر عن الأخلاق والطبائع.

وإذا ابتلاك الله بعدو، قاومه بالإحسان إليه.

وحينما يثق بك أحد فإياك ثم إياك أن تغدر.

وإذا قذعك الناس بالنقد، فافرح فلا يُرمى إلا الشجر المثمر.

لا تحاول إصلاح الكون فبفقدان الشر والكذب لن نصبح نحن شرفاء ومميزين.

واعلم إنه إذا اشتد سواد السحب، فإن المطر بات قريباً.

الأطفال يا ولدي ثمار الحياة، إذا لم تحمها حمضت وعطبت، وأفسدت وأضرت.

قال الحكماء: اتركوا الأولاد للأمهات، ولكن لا تتركوا الأمهات للأولاد، لأنه من العجيب يا ولدي أن تطعم الأم سبعة أولاد. ولكن سبعة أولاد لا يطعمون أماً.

ختاماً أرجو من الله العلي القدير أن يحفظك ويقيك من كل شر، وأن يجعل لك في كل خطوة طريقاً للسلامة، وأن يرزقك القناعة فهي أعظم الكنوز.

وأوصيك خيراً بإخوتك فأنت قطعة منهم وهم قطعة منك، ورحم الله والدك فقد كان أباً عطوفاً وزوجاً صالحاً، وإنّا لله وإنّا إليه لراجعون.

**أمك...**

اليوم انفجرت ينابيع أحزاني.

الغصة تحولت إلى أنهار دموع. اليوم عرفت ما معنى كلمة أم.

لقد رحلت وتركت لي آخر دروسها في الحياة. مع كل جملة في رسالتها تنهار دمعة وزفرة وآه. دموع الحزن تمتزج مع دموع الندم ودموع الخوف ودموع الحنين.

سامحيني يا أمي فأنا لم أكن ما تودينه.

اغفري لي تقصيري، وارحمي ضعفي، واقبلي ندمي، وسامحيني، فقد كنت جاحداً ناكراً للمعروف.

لقد أقرضتني ولم أستطع أن أرد الدين.

❖ ❖ ❖ ❖

# في السّجن...

ما أقسى الرجوع إليك أيتها الجدران!

وكم أنت قميئة ومفيدة يا أيتها النافذة العالية الصغيرة المزينة بالقضبان!

أفكار تتهمر في مخيلته ودموع حزن لا تفارقه وهو ينظر إلى الضوء القادم من تلك العالية، فدوام الحال من المحال. ولكن ألم يكن هذا بالحسبان؟

نعم هذه المرة كان الأمر متوقعاً، ليس كصدمة المرة الأولى.

دخوله منذ سنوات هذا المكان كان صدمةً.

هزة ليلة الدخلة والتجربة الأولى.

حين ضمته جدران هذا القفص الإسمنتي تعرف ليلتها على الأرق، وسهر معه حتى مطلع الفجر.

أربع سنوات مسافة زمنية تفصله عن تلك الذكريات.

أربع سنوات من الأحلام الوردية التي عاشها واستيقظ من كابوسها منذ أسابيع خلت.بطاقة انتسابه إلى هذا المكان ملأها حين زار "صبحي" ذات مساء طالباً معونته المالية لتسديد فاتورة مشفى ابنه الوحيد "أحمد".

ابنه الذي وهبه الله الذكاء والجمال والحساسية ومرضاً مزمناً يتطلب غسيل كليتيه كل فترة.

"صبحي" تاجر مخاطر، مصلحته فوق الجميع.

ذكي بالفطرة، لم يصقل ذكاءه بالتعليم، دمث الأخلاق، طيب القلب، يساعد المحتاجين، لا يرد طالباً. قصده كما يقصده الجميع. وساعده كما يساعد الجميع.

بعدها بدأ بالتردد والتودد لمنقذه ومخلصه.

وفي أحد الأيام قبل عرضه العمل في المؤسسة التي يديرها ويمتلكها "صبحي".

خلال مسيرة عمله كان يحترم القوانين التي لا تتعارض مع المصلحة النهائية لطبيعة العمل.

لا يدري كيف ومتى؟ دخل في دوامة العمل اللامسؤول. ولكنه استيقظ ذات صباح ليجد نفسه حائزاً على كثير من المخالفات والتهم التي مهدت له الطريق لفض بكارته القانونية رسمياً.

في ليلة الدخلة الأولى تعرف على من سيكون له اليد في عودته. وهناك في السجن أدرك كم كان ساذجاً وملوثاً وغارقاً في الأوحال.

عصبونات عقله الباطن كانت دائما تحذره وتحدثه عن الأخطار، ولكن المكتسبات والحاجة كانت ترخي سدولها على تلك الأفكار وتنبذها وتبعدها ولا تظهرها.

مرت الأيام وازدادت الأوحال، وابتعد عن شاطئ الأمان.

وذات يوم أتاه كشف الحساب، وكان لابد من دفع فاتورة الديون.

ديونه القانونية كانت متعددة، وكان أهمها المساعدة على عدم احترام القوانين الاقتصادية.

أشهر عدة قضاها بانتظار كلمة حق وخلالها توطدت علاقته بـ"ميهاي".

"ميهاي" بهلوان ولاعب سياسي ماهر.صالح لكل الأزمنة والأمكنة. عرفه بنفسه بأنه رجل قانون، رغم بعده الكلي عن الصفتين.

"ميهاي" أصبح شريكه لاحقاً. كان نافذة من الأمل أشرقت على ظلمة أيامه آنذاك. كان المرشد والمخلص والدليل.

كان الدواء لعلته الجديدة، وعن طريقه حصل على كثير من الامتيازات، فكثرت زيارات الأصدقاء والعائلة.

"ميهاي" كان الصدر الرحب الذي يسمعه دائماً حين يفضفض عن نفسه المعذبة. يشكو له همومه. يسرد له مسيرة حياته، ويتذكر معه خطوات انزلاقه.

كان يحدثه عن كل شيء. وكان "ميهاي" يساعده في الحصول على امتيازات: طعام – اتصالات هاتفية – زيارات.

حتى أنه نصحه كيف وماذا يجب أن يقول أثناء محاكمته؟

وحتى عندما خرج وعاد إلى حياته الطبيعية، كان "ميهاي" مفتاحاً لباب دخوله إلى عالم المال والتجارة من جديد.

لا يدري كيف وصل إلى ما وصل إليه اليوم؟.

ولكن ما يدركه تماماً أن المخاطرات كانت نزهات بالنسبة له، وأنه بنى ستاراً حديدياً أمام المحاكمات العقلانية السليمة للعقل الباطن، وأنه أبحر عميقاً، وحلق عالياً، فلم يعد يرى سوى السماء.

ابتعد عن أصدقاء الأمس، هجر زوجته، واقتنى إحدى آيات الجمال.

زرع لابنه كلية جديدة ومن ثم لفظه وأمه.

هرب من الماضي وسحق كل المقربين، ولبس عباءته الجديدة.

المشاكل القديمة التي كانت تؤرقه وتحتاج أياماً لحلّها، أضحى حلّها مع أصدقائه الجدد يحتاج إلى مكالمة هاتفية على مائدة عشاء. هو و"ميهاي" وشركاؤهما كانوا فريق عمل يأكل الأخضر واليابس. لا يقف في طريقهم أي شيء. وضعوا المال هدفاً، وتمكنوا من صناعته بشكل أذهله.

مارس العهر الاقتصادي بكل أبعاده وأشكاله وطرقه، ونهل من ملذاته. وكان دائماً خارج إطار المساءلة والمحاسبة.

"المال يصنع المعجزات" أصبح شعاره الجديد، و"لكل شيء ثمنه" أصبح واقعه المعاش.

ذات يوم وقبيل موعد الانتخابات البلدية بأشهر، بدأ أصدقاؤه الجدد بمحاولات لكبح اندفاعه.

لم يأبه. لم يصدق. لم يكترث. ورغم أنهم خفضوا نسبة مشاركتهم بصفقاته إلا أن الأنا كانت كبيرة ومتضخمة لديه، فلم يكترث وتابع اندفاعه بقوة أكبر.

بدأت المشاكل صغيرة، وبدأ ناقوس الخطر يقرع، ولكن دون آذان صاغية.

أخبره أحدهم أن صلاحيته انتهت، وأنه غدا شخصاً فاسداً. لم يصدق، وردَّ نصيحته إلى الغيرة والحسد.

كبرت مشاكله وتشعبت ولم تعد تتوقف عند حدها المعتاد. فقدت الاتصالات من على الموائد سحرها المعتاد.

طلب مساعدة "ميهاي" فحدثه بلغة غريبة لم يعهدها منه. قال له: "لا أحد يستطيع مساعدتك. الموضوع أكبر من قدراتنا" وأضاف: "لقد نصحوك".

قصوره الرملية ودون سابق إنذار بدأت تتهاوى لدى أول هبة ريح، وأول موجة قوية أخذت ما تبقى منها.

لم يعدِ يدري كيف تتسارع الأمور، وكما كان صعوده سريعاً منافياً لقوانين الجاذبية، كان هبوطه عنيفاً منافياً لكل قوانين الطبيعة.

هوى من الأعالي فاصطدم بحقائق لم يكن يجهلها بل كان يخفيها.

اليوم أحس بمكانته واكتشف حقيقة المال الذي ضحى من أجله بكل شيء غال في حياة إنسان.

بالمال استطاع أن يجمع الأصدقاء ولكن لم يستطع أن يشتري الصداقة... استطاع أن يشتري الكتب ولم يتمكن من أن يشتري الثقافة... ستطاع أن يشتري الدواء ولم يتمكن أن يشتري الصحة... استطاع أن يستحوذ الإعجاب ولم يستطع أن يشتري الحب.

❖ ❖ ❖ ❖

# عودة سارة...

تتململ في سريرها، وتكشف عيناها ربيعاً أخضر.

ترنو إليه بنظرة مختلسة وهو يلهث ممارساً رياضته الصباحية.

تقع عيناه على وجهها المتواري خلف الوسادة فيتذكر مشاجرة الأمس. كم كان غاضباً في الأمس؟ لم يعرف مثل هذا الغضب منذ بداية تعارفهما.

عرفها حين كانت وردةً تبدأ بالتفتح. لم يقطفها ويرميها، بل حضنها ورعاها، وحاول أن يكيفها مع مفاهيمه، وينشئها في محيطه. حيويتها، رقتها، انطلاقتها، حريتها، كانت كنوزاً يتمنى لو حازها.

في لقائهما الأول أعادته عيناها لقريته الجبلية البعيدة... وحين انسابت نظراته كشلال على قدها الروماني، قفزت خيالاته إلى لاعبة الجمباز (ناديا كومانتشي).

إحساسه بدقات قلبه المتسارعة زادت من الحمرة التي هاجمت وجهه في حديثهما الأول الذي دار بينهما بجميع اللغات، وكان أكثرها تمكناً لغة الإشارة. ويذكر أنها حين سألته مبتسمة بدلال "هل أنت عربي؟" أجابها بفخر وزهو تلك الأيام: "نعم".

تعددت لقاءاتهما، ونمت الإلفة، وتراكمت المودة. علّمته اللغة، الطرق والشوارع، العادات والتقاليد.

أعجبها صدقه، صراحته، رقة عواطفه، ثقافته وكرمه. وأعجب برقتها، وأنوثتها، ثقتها بنفسها وجمالها.

أثمرت علاقتهما عن سامر. وقبل الثورة بأيام تزوجا ورزقا بسارة.

في مسيرة حياته أتته الكثير من الفرص للكسب اختار أفضلها وأنظفها، وكون ثروة نظيفة يفخر بها. رفض الكثير من المكاسب بسبب قوانين تعلم أن يحترمها، ومبادئ نشأ وتربى عليها، لم يصبح من أصحاب الثروات الهائلة.تبدلت الحياة اليوم، وانقلب الكثير من مفاهيم الأمس، حتى هي لم تعد تلك الطفلة التي كان يلعب معها. يفهم جدلية التاريخ وحركته، ويعلم أن تفكيره ديناميكي يقبل بسهولة المستحدثات، ولكن ما لا يستطيع فهمه هو لماذا تتحول المكتبة من غرفة الجلوس إلى غرفة المؤونة، وتهمل موسيقى بيتهوفن وموتزارت ليحل مكانها موسيقى إلكترونية خالية من الحياة؟ ولا يعلم لماذا اشتاقت إليهما دار الأوبرا وكذلك مسرح المدينة وحدائقها؟ لماذا تحولت علاقاتها الاجتماعية إلى مصالح مادية؟ وغاب رفاق الفكر واستبدلوا برفاق العمل!

في هذه الأيام يستعيد غربته تدريجياً بعد أن فقدها منذ سنوات.

هل فقد قدرته على التأقلم بسبب العمر؟ أم أن السبب هذه البلاد التي نفضت عن نفسها غبار الأمس وانطلقت مبحرة في سباق ماكيافيللي محموم؟

في الأمس كان يجلس في منصة الادعاء موزعاً الاتهامات بمخالفة الأعراف والقوانين، واليوم يجلس في قفص الاتهام بتهم الانتماء، وعدم مجاراة العصر، وعدم تفهم الواقع، يحاكمه أعمدة مجتمع اليوم الذين أدانهم في الأمس.

كل هذا لم يرعبه، ولكن ما يخشاه هو وصول هذه المفاهيم إلى أولاده. يريد لسامر أن يكون عالماً أو مبرمجاً، والمادة تأتي لاحقاً.

والدته تريده أن يكون تاجراً يشتري ما يشاء من ألقاب ومناصب.

أخبرها عدة مرات أن قوانين الغاب غير صالحة لتربية أولاده لأنها قوانين خاطئة. أجابته: "أن يفترس النمر غزالاً ليس عملاً وحشياً، فهو إن لم يفعل مات من الجوع". وحين أعلمها أن هنالك قوانين إنسانية متحضرة، أخبرته ما يطنطن به دائماً جارهم المتنفذ: "القوانين كالحائط يمر الصغار من تحتها ويقفز الكبار من فوقها ويصطدم الحمقى بها".

كل هذه الأمور تتراكم قطرةً قطرةً في وعاء صبره. وما حدث في الأمس كان القطرة التي ملأت الكأس، فانسكب غضبه على سارة التي عادت متأخرة من حفل ميلاد صديقتها، وخاصة حين علم أن صديقها في الصف هو الذي أوصلها.

تدخلت هي مدافعةً عن تصرفات ابنتها متهمةً إياه بالتعصب والسلفية، فبادلها الاتهامات بالانحلال الخلقي للمجتمع والفساد، فأجابته بأن الإنسان الذكي يتكيف مع بيئته.

صمت الجميع بعد أن ارتفع صوته مهدداً متوعداً، سابّاً لاعناً، وحين دلف إلى غرفته استرجع اتزانه، وجلس متسائلاً: "ما الحل؟ هل يغترب ثانية إلى بلده الأم، أم يقبل أن يتغير نحو الأسوأ؟" معادلة صعبة، وقرار أصعب لا يزال يعتمل في مخيلته حتى اليوم.

# حب وحيد الاتّجاه..

من العدم انطلقت مشاعري صارخةً تعلن عن ولادتها، نظرة فابتسامة فموعد فلقاء حديث ونظرة إلى عينيه كانت كافيةً لتجعل إيقونة السحر فيهما تبدأ مفعولها، ومن عينيه ابتدأت رحلة إلى عالم جديد، عيناه كانتا وطني الجديد ومملكتي القادمة، والزمن أصبح له مقياس آخر في حياتي فالثواني تحولت إلى ساعات بانتظار المساء موعد هجرة طيور الرغبة إلى سماء الاشتياق باحثةً عن ملاذها تلك الطيور التي اعتادت على الإدمان، إدمانها على رحلتها اليومية إلى وطنها الجديد.

من قال إن الغربة هي غربة الجسد؟! إن الغربة هي غربه الروح والقلب. الغربة هي الحيرة والضياع والحياة المهجورة من الأحبة.

حبه انسكب قطرةً قطرةً في وعاء أيامي وكان لا بد من أن يأتي اليوم الذي سيطفح الكأس، حينها سأرتكب جريمة الكلمة وأعترف له بمشاعري وبأنه قد تم تتويجه أميراً لقلبي.

الكلمات باتت تنتظر دورها لتدب الحياة فيها وتهاجر مع مشاعري إلى ملكوته.

أحببته كالأرض العطشى التي تهب نفسها للمطر، وأردت امتلاكه كما تمتلك طفلة صغيرة أغلى ألعابها.

وفي اليوم الذي لا يجمعنا لقاء كنت أهرب إلى النوم أملاً في أن التقي به في الأحلام. منتظرةً يوم أجمع فيه حقائب الحب وأمضي لأسكن في مخيلته.

كبتُ مشاعري كان كالسكين الحادة تحولني إلى كتلة من اللحم المفروم، نظراته، كلماته، جاذبيته، تصرفاته ، عصبيته كانت أمواجاً تضرب مراكبي تدعوها إلى الغرق في بحوره.

في يوم ممطر تقدم لوالدي شاب يرغب في أن أكون أماً لأولاده، فاسترجعت ذاكرتي المخدرة بالآمال والأحلام نشاطها وتهت في الوصول إلى الرد المناسب.

من هو ومن أنا بالنسبة له؟

أخبره بالقصة أحد أصدقائنا المشتركين وحين حدثته لمعت عيناه ببريق غريب لم أعهده فيهما.

لم استطيع أن أترجم أحاسيسه ولم أفهم لغة بريق عينيه.

على الهاتف تجرأت وألقيت بخزائن عواطفي إليه، وعلى الطرف الآخر كان الصمت، الصمت القاتل الذي جعل مراكبي تهاجر في كل اتجاه، دقائق بدت كالدهر وأنا أتساءل: هل أصل بعد هذا بعواطفي ومشاعري إلى شاطئ الأمان؟ أم أن العواصف القادمة من جهته ستغرقها!

على الطرف الأخر أتى الرد بارداً ، ومبهماً ، وخالياً من الحياة، أجاب على تساؤلاتي بتساؤلات؟ ووضعني في حيرة أكبر وعذاب أقسى.

ودارت الأيام ومضى عام آخر من العذاب والحيرة الممزوجة بالألم، والآمال، والأمنيات، وأعلن عن ولادة عام جديد.

اخترت واختار أن نبدأه معاً في نفس المكان، قمت بدعوته إلى الحفل وتقبل الدعوة بفرح ورغبة.

الفرحة كانت بقدومه أكبر بكثير من الفرحة بقدوم العام الجديد، وفي تلك الليلة ضمت جسدانا غرفة واحدة نسينا فيها كل من حولنا وانطلقنا سوياً في عالمنا الخاص، كنا أشبه بعروسين في ليلة زفافهما.

وفي صباح ليلة الزفة أشهر مسدسه وصوب على قلبي كلماته وأطلق عيارات نارية من الكلمات القاتلة. أبلغ صديقنا المشترك أنه لا يفكر فيَّ كزوجة. وأنه لا يرغب أن أكون جاريته، وملك يمينه، وحبيبته في يوم من الأيام. وطلقة الرحمة كانت حين قال: أنا لا يهمني إذا كانت تحبني فهذه مشكلتها؟!

في ذلك اليوم المشؤوم تمنيت لو أكون نسياً منسياً، تمنيت لو أني أعود إلى العدم فأسكن هناك.

دلفت إلى غرفة نومي، واقتربت الوسادة صديقتي المخلصة التي أشكو لها همومي من رأسي بقوة، وارتشفت الدموع التي ذرفتها وكتمت أصوات النحيب، والأنين، والقهر. تخيلته يقول: "لا أنت لست لي ولا حبك لي".

فكرت في كل الطرق وجميع الاتجاهات إلا أن أتخلى عن حبه وأنسحب من حياته، فهذه ستكون حكم علي بالإعدام من قبل جلادي.

وعدت إلى التساؤل تتقاذفني أمواج الحيرة: "هل هو جاد في كلماته؟ ولكن ماذا عن تصرفاته! هل أحاسيسي خدعتني؟ هل يعتقد أن الرجل لا يمكن أن يعترف بالحب؟ وماذا إذاً عن المرأة؟ هل للحب لديه مسكناً وهل للعواطف ملاذاً؟ هل خفق قلبه مرة بكلمة أحبك؟ أم هل له قلب

أصـلاً؟ هـل قلبـه أعمـى لا يـرى؟ وأصـم لا يسـمع؟ وأخـرس لا يتكلم؟

أعـرف وأعلم وأحس وأدرك أنـه إنسـان ملـيء بالمشـاعر والأحاسـيس والحـب والرغبـة، فلمـاذا يريـد أن يجعـل قلبـه مـن الحجـر؟ ويـدرك أن هـذا مسـتحيل. ولمـاذا لا يريـد أن يعـترف أن هناك قصص حب فاشلة وأخرى ناجحة؟

شموع الأيام تنطفئ واحدة تلو الأخرى ولا نلبث أن نبقى في الظلام مخلفين وراءنا خطاً طويلاً من شموعٍ الأيام المطفأة لنعمل سوية أن نحافظ على بعض الشموع متقدة لتنير الطريق لنا ولغيرنا في أيام الظلام.

❖ ❖ ❖ ❖

# ليلة زفافها...

يوم خريفي ممطر. الشتاء في طريقٍ عودته من رحلته الجنوبية. سيعود ثانيةً ليطرق الأبواب داخلاً دون استئذان.

الشارع يتحرك تحت مظلة من الغيوم الداكنة الممطرة. المارة يفرون هاربين من البلل.

تقف على الناصية تراقب المشهد. نظراتها تخترق جدار الزمن. تعرض في مخيلتها شريطاً من الذكريات الخاطفة. شريط الشتاء الماضي.

في المكان نفسه في منتصف هذا الشارع أمسك بيدها وأجبرها على الوقوف صارخاً بها بحنان: "ارفعي رأسك بشموخ، واستقبلي حبات المطر هذه هي الرحمة، فلا تفري منها".

دمعة تنساب على الخد تتابع سيرها نحو الأرض لتمتزج مع حبات أمطار الخريف الهاطلة فتغسل أدران الماضي.

دموعها الهاطلة ليست دموع فرح، على الرغم من أن هذه الليلة هي ليلة زفافها. دموعها تبكي أحلاماً موءودة وسفناً غارقةً.

اليوم يوم الإعدام. يوم مشهود. يوم إعدام مشاعرها تحت مقصلة الزفاف.

اليوم سيشهد نهاية قصة حب. وسيسدل الستار على أحلامها بالعيش معه.

حتى فساتينها التي حاكتها لترقص معه ستكون هذه الليلة ملكاً لغيره.

أحمر الشفاه الذي يحبه ستمنحه شفتاها لغيره.

العقد الذي أهداها إياه ويزين صدرها الليلة ستمنح حق لمسه لغيره.

الليلة ستغلق عينيها، وستتخيل أنه هو من ترقص معه، وتقبله، ويلمس عقدها. وستهاجر روحها إلى ذراعيه، وستذوب في أحلامها بين يدي غيره.

سترقص الليلة على بقايا ذكريات وبقايا صور.

وغداً سيستيقظ الصباح، وستشرق شمس البعد على كليهما.

غداً سيصله نبأ زفافها في غربته. وسيقف على أطلال ذكرياتهما. وربما، سيمزق رسائلها. سيتعذب وستنهشه الغيرة. سيوقظه النبأ من سبات مشاعره، وسيتخيلها كيف أمسكت بيد غيره وكيف منحت شفتاها القبل لغيره، وكيف أن غيره استحوذها. ضمها. عانقها. قشرها من ثيابها. والتهمها.

سيصرخ أو سيبكي.

ستهطل دموع الألم والغيرة والاشتياق والحب، وستمتزج مع دموع الندم، ندم من أضاع قلباً دافئاً ومشاعر صادقة.

يوماً ما سيدرك أنها أحبته بطريقتها الشرقية، وأن مشاعرها كانت مسجونة، وأنها ودت لو منحته كل ما طلبه لتنال رضاه. منعها من ذلك إيمان بالله رضعته، وعفة تربت عليها، وخوف من أن تصبح ساقطة في عينيه.لم تكن تمثالا جميلا من الشمع كما كان يقول لها.

كانت تملك روحاً مليئةً بالمشاعر التي تدفئ القلوب، وعاطفةً مترعةً بالحنان، وأشواقاً تغلي في العروق، ورغبةً كانت براكين خامدةً لم يُقدَّر لها أن تنفجر.

لم تكن بخيلةً كما كان يظنها. كانت على استعداد أن تهبه حياتها لو طلبها.

سيدرك ذات يوم أنها تمنت دائماً لو أن غيوم أشواقها هطلت أمطار حب على صحراء رغباته، بدلاً من أن تهطل - وبعد كل مرة قابلته فيها - دموع ألم تبلل وسادتها.

كم حلمت بفراش واحد يضمهما! وأن تتمدد على لحاف يديه! وأن تفتح عينيها على إشراقة عينيه!

كم تمنت أن تسمع صوت طفله يصرخ لها "ماما"!

مَنْ سيشعل الحب في الغد؟ ومن سيجعل الأيام تتوهج بعد أن انطفأت شمعة اللقاء، وغربت شمس السعادة، وانتهت المشاعر يتيمةً على قارعة البكاء، بعد أن ذبحتها سكينة البعد وطعنها سيف العناد؟

في الغد ستشرق شمس البعد. كم باتت تكره الغد وتتمنى ألا يأتي!

عجلة الحياة ستستمر. وغداً لن تجف الأنهر، ولن يتحول لون السماء إلى لون أحمر دامٍ، ولن تموت الأشجار.

غداً سيكون صفحةً أخرى من كتاب حياتها الذي تحول إلى صفحات من الأحزان وأخرى من الآلام، وبات من الصعب عليها أن تغلق هذا الكتاب لتطوي صفحاته النسيان، فالليلة ليلة زفافها إلى قاتل حبها.

# وفاة والدي...

الحزن الأسود يغرق كياني بدموعه بعد أن تمكن من أن يجعل الدموع تنهمر من كل خلية في جسدي. الفاجعة ذبحت نسيج قلبي فنزف ألماً.

اللوعة تحرق أعصابي فأستنشق رائحة الحريق باستمرار.

النفس انفصمت وتشرذمت إلى فتات ناعم تبعثر في كل مكان. المأساة حولتني سكينها الحادة إلى كومة من اللحم اللزج. اضمحل صوتي وتلاشى، فأنا غير قادر حتى على الصراخ. ورغم صحوتي الظاهرة للجميع فأنا مغمىً عليَّ من الألم.

رويداً رويداً أغوص في مستنقع الضياع، وأشعر باختناق وجودي، وأفول شمس أيامي وراء بحر لا نهائي من الظلام الذي أخذ يسدل رداءه على حياتي.

التعاسة تمكنت مني بسهولة، واحتلت كياني دون أي مقاومة، فاستعبدتني وقهرتني، وبكل اللؤم والحقد والقسوة راحت تمحو المعاني الجميلة في سماء حياتي، وتطفئ أي شعاع أو ومضة نور. وبنهم شديد، وشراهة لا حد لها، راحت تبتلع وجودي قطعة إثر قطعة.

نعم لقد رحل السند والأب والأصل ورفيق العمر ومرشد الدرب، وتركني وحيداً في طريق وعرة موحشة مظلمة وظالمة.

رحل الإنسان الطيب، ورحل معه الهدوء والسلام والدعة والأثرة والكرم والحب والإلفة ونكران الذات وكل ما هو جميل ونبيل ورائع.

رحل وترك خلفه حياةً قاسيةً، موحشةً، قفراءَ، قاحلةً، جرداءَ، سوداءَ، حقيرةً، ليس فيها سوى شعور الغربة والضياع ومرارة الألم.الحزن واللوعة، والتعاسة والغربة، والوحشة والحظ العاثر، تحالفوا لتهديم وتحطيم ما لم تستطع الفاجعة الرهيبة أن تحطمه، وتكالبوا على نفسي المنهارة ووجودي المسحوق، وقاموا بتسليمي إلى اليأس القاتل والعدم النهائي.

هذا الحلف الظالم يعبث ساخراً معربداً بأيامي وأحلامي، بكياني بفراشي وبمائدتي، حتى أشعر بالغربة مع من حولي وبالغربة مع ذاتي، كأني أهوي في فراغ سرمدي دون قرار.

ذاكرتي المريضة بداء النسيان المزمن، التي طالما اعتادت خيانتي، وحجبت عن فكري مواقف عمرها دقائق، وعرضتني لأشد المواقف إحراجاً وإرباكاً وحيرة وخجلاً، هذه الذاكرة الحقيرة البليدة الميتة

تصحو اليوم فجأة وتبدي نشاطاً وحيوية غير اعتياديّين، فتعرض على مخيلتي شريطاً طويلاً وكاملاً ومفصلاً لذكرياتي مع والدي، بحلوها ومرها منذ نعومة أظفاري وحتى يوم الفراق الأسود، ولا تمل من عرض هذا الشريط في أحلام اليقظة والمنام.

ولا يلبث مسار الحياة أن يفرز سيلاً من الأمور التافهة، والمشاكل الصغيرة والكبيرة تتطلب التفرغ لها وحلها فتفرض نفسها، وتغتصب أوقاتي وتجبرني على إحاطتها باهتمامي. وبدلاً من أن تساهم في النسيان، فإنها تضيف حملاً جديداً ثقيلاً على نفسي المجروحة المريضة المنهكة، فأشرب كأس المرارة حتى الثمالة، وتنتابني الحيرة ويعتريني الذهول ويتقمصني الخوف، ويصاب تفكيري بالشلل بعد أن تمكن مني هذا الأخطبوط وقيدني بأذرعه القوية الكثيرة، فأدركت أنه لا خلاص لي إلا بالاستسلام والغوص في هذا الواقع المفزع، وأنا أدرك أن الخلاص يحتاج إلى مقومات لا أملكها.

أغوص وأنا أراقب نظرات الشفقة والرثاء تغلفني وتغطيني.

أغوص وأنا أرى أن ما أمنحه للآخرين من حب وعاطفة نبيلة قد تحول إلى نقطة ضعف تُفرض علي من خلالها أمور لا يمكنني أن أقبلها اليوم، أما الغد فهو يوم آخر.

❖ ❖ ❖ ❖

# في المشفى...

من نافذة المشفى الموحشة أطلت أولى نظراته بعد العملية الجراحية التي أجريت له فعانق الحياة من جديد بعد أن انزلقت به الهاوية إلى حافة الموت.

الوحشة ولا شيء سواها في تلك المقبرة البيضاء، الأبواب مغلقة دونه، وحيداً يدافع عن نفسه من زحف الدود القادم، والذي لن يتمكن من الفوز بجسده هذه المرة.

منبوذاً يرقد على السرير لا أحد يأبه بصوته المرتفع أو استغاثاته المتكررة، تنتابه ولأول مرة في حياته موجة من البكاء المؤلم وهذا النوع من البكاء دموعه حارة.

في مسيرة حياة كل منا يذرف المرء الكثير من الدموع، دموع فراق لمسافر أبعدته المسافات، ودموع فراق لعزيز واراه الثرى، دموع ألم، ودموع شوق وحنين، ولكن دموع بكاء الذات هي أشد تلك الدموع حرقة وألماً، حين يبكي الإنسان ذاته، يبكي فشله، حينها لا يجرؤ على الشكوى، ولا يجد من يشاركه الحزن، ولا يقوى على البوح بما يعتمل في صدره.

للمرة الأولى في حياته يتعرف على هذا النوع من البكاء المؤلم... بكاء الذات.

تتدحرج كرة حياته أمام عينيه وتبدأ ذكرياتها المؤلمة بالتسارع، فتتفجر ينابيع الدموع، وتبدأ محاسبة الذات.

الحادث الذي تعرض له مؤخراً أعاده إلى ميزان الحساب الختامي فوضع نقطةً وبدأ من أول السطر متسائلاً:

ماذا لو كانت نهايتي؟ وماذا عملت لآخرتي؟ وكيف سأقابل رب العالمين وأنا أحمل تلك الأكداس المكدسة من الذنوب والآثام؟

صعب عليه مصيره الذي آلَ إليه فوجد في الدموع مهرباً وملاذاً...

يستعيد بالفكر جميع مراحل حياته فيجد أنه لم يجنِ من سلوكه وطريقته في الحياة إلا المال، والمال قد بدده فبدده هو الآخر.

يتساءل بينه وبين ذاته: ماذا إذا تخلى عني الحظ وكرهني المال؟ لن يبقى لي صديق ولا حتى زوجة!!

العزة، الكرامة، الجاه، الذكر الطيب، الصديق الوفي، الزوجة المخلصة، ثروات بددها واليوم لا يملكها، ولا يمكنه شراؤها!

توقف مع ذاته برهةً من الزمن متسائلاً ومستغرباً هل أنا من يبكي؟ ولماذا البكاء؟

حاول مدافعاً عن نفسه، استحضار أفكار معلمه ومرشده وملهمه وأباه الروحي "حامد" محاولاً قتل مشاعره الجديدة المبكية مواجها ضعفه.

"حامد" شاب طويل أنيق معطر يبدو عليه الثراء والثقة بالنفس. وإن كان يعاني انهياراً روحياً يحاول إخفاؤه وعقدةً سببتها له قسوة والده. تبرز في جميع تصرفاته وتعاملاته لذلك يتحاشاه الجميع.

(هل لابد أن تفوح رائحة العطور من رجل لكي يكون محبوبا؟)

مع "حامد" وبمعونته المادية تمكن "رامي" من تجاوز وقت عصيب مادي خيم عليه في الماضي وبإرشاداته وتعاليمه صقل لديه روح الانتهازية والاستهتار التي امتلكها، والتي هي اليوم إحدى أسباب دموعه.

الحياة غربة لمن يجهل قوانينها، وجنة لمن يستخدم تلك القوانين، كانت أولى القوانين التي اجتهد في تعلمها.

عمل لدى حامد عدة أعمال كان منها مزايداً صورياً في مناقصاته. قناعاً يخفي وجهه وانتهازيته وتسلطه. ملقطاً يلتقط مكاسبه القذرة. نادلاً لموائده. سائقاً لمواكبه. مستشاراً لنزواته. وسكرتيراً لشهواته.

تعود منذ نعومة أظفاره على الشر والكذب والنفاق حتى وصل إلى مرحلة الإدمان، والاستهتار بالناس وحقوقهم ووجودهم وكرامتهم فأصبحت تلك هوايةً وإستراتيجيةً وأسلوب تعامل، عرف به، ودمغ بشخصيته.

قوانين الحياة التي مارسها وتعلمها وتفانى في تطبيقها كانت بسيطةً وعمليةً.

الناس قطيع من الأغنام يجب أن تتم قيادتهم بالخداع والنفاق والرياء والحيلة. الخير والفضيلة ليس لهما وجود إلا في أذهان المفكرين وهي مفاهيم خيالية لا يمكن أن تظهر إلى الوجود.

النفاق هو فلسفة. الرياء هو حسن تصرف. تهميش الآخر هو ذكاء وفطنة. الحكمة أن ينكث المرء بوعده (ألف قلبة ولا غلبة). التذبذب خطة استراتيجيه. طمس الحقائق عبقرية. الكذب الدين الجديد هو يغفر لمن يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء ويعذب من يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب!

تعلم استغلال نعمة النسيان فالعالم محدود النظر، قصير الذاكرة وأكبر فضيحة لا يتجاوز بعدها الزمني أسبوعاً واحداً. انعزل عن كل من هم حوله من البشر ونبذه وكرهه أصحاب الفكر والمبادئ وما أكثرهم.

فقد البصر والبصيرة، وفقد القدرة على رؤية الطريق السوي وتقدير المسافات الحقيقة. ضلَّ الطريق إلى الروح، أعمته سطوة الجسد عن متطلبات النفس، سلطان المال والجسد تمكنا منه. اليوم ضعف الجسد وبدأت عودة الروح وأشرق الندم قرر اليوم أن يقترب من إنسانيته، ويحتضن الخير، قرر أن يغتسل من الآثام ويتطهر من الشرور.يدرك كم هو صعب طريق الخير، خاصة لمن لم يرتَدْهُ منذ زمن.

يعلم أن الله غفور رحيم، ولكن ماذا عن بني البشر؟ هل سيصدقه من حوله؟

أمام نافذة المشفى تتجاذبه أفكار اليوم، والغد يوم آخر؟

❖ ❖ ❖ ❖

# ابنتي سارة...

لا أعلم لماذا افتح عينيَّ كل صباح على ذكريات الوطن والأحبة في الوطن.

دقائق من شريط الذكريات تمر بالخاطر تحتل الزمن ما بين الاستيقاظ والنهوض من السرير.

تتراءى لي في أحلام اليقظة غرفتي الصغيرة في منزلنا البسيط وأكاد أسمع أصوات الباعة المتجولين وصياح الأطفال وحركة الضجيج وأبواق السيارات المزعجة. أشياء أفتقدها هنا، أشياء استبدلتها برنين المنبه وهدوء الطبيعة، حفيف أوراق الأشجار، وزقزقة العصافير.

أتساءل وكل صباح إلى أين أنتمي؟ إلى جذوري أم إلى واقعي المعاش؟! ويختفي السؤال مع بداية اليوم ليعاودني في الأيام التالية.

ألهتني مباهج الحياة في السنين التي خلت عن هذا السؤال ولكنه اليوم عاد وبقوة بفرض نفسه و في كل صباح وأنا باحث غير واجد الأجوبة السهلة المستحيلة.

آه...

أوف...

كم هي صعبة هذه الحياة؟ وكم هو صعب اتخاذ القرارات؟

وهل أنا قادر على اتخاذ القرارات؟ وإذا حدث فهل هي ممكنة التنفيذ؟

في موطني كنت أفتح عينيَّ على الحلم بالهجرة وامتلاك سيارة وزوجة هيفاء القد ترتدي بنطال الجينز وكنت اعتقد أني فرد لا يخطئ، صالح لكل زمان ومكان، عارف ملم بكل الأمور، وأن جميع من حولي أقل مني كفاءةً وذكاءً ولذلك فهم يتآمرون ضدي! وحتى بُعَيد فترة من مجيئي هنا كان يتبادر إلى ذهني أننا معشر الرجال الشرقيين لا نخطئ وأنّ قراراتنا صائبة دائماً وإذا لم نتمكن من تنفيذها، فالسبب هو الآخرون الذين نعلق عليهم دائماً فشلنا سواء أكانوا أفراداً أم مجموعةً أو نظاماً وحتى دولاً استعماريةً تتآمر على حكمتنا لتفشيلنا.

اكتشفت هنا أني إنسان عادي، قليل المعرفة، محدود الاطلاع، بسيط التفكير، كثير الشك، لا أثق بالآخرين، أنتقص من إمكانياتهم لا أرضي ذاتي.

بعد أن اكتشفت الداء باشرت العلاج إلى أن تماثلت للشفاء.

هنا أعدت تشكيل ذاتي بعد أن تعلمت أن أطرق المواضيع مباشرةً دون لف ودوران أو تملق أو تزلف.

هنا تحولت إلى إنسان آخر، تخليت عن الكثير من العادات والتقاليد الموروثة، وألقيتها في سلة مهملات الذكريات.

غيرت جلدتي كما يقول لي صديقي "جابر"، ورغم هذا فمازلت أحنّ إلى الجذور، ورغم أني أحمل جنسية هذا البلد وأتمتع بالحرية فيه، فأنا دائماً في حالة الدفاع عن الانتماء وخاصةً أمام أولادي الذين يرفضون قبول أراء وعادات

غريبة عنهم بعد أن تعلموا حرية الاختيار والاختلاط وحقنوا بالكثير من العادات، فبات من الصعب ترويضهم وإعادتهم إلى بر الأمان.

الدكتور "صادق" لا يعاني من هذه المشكلة فأولاده متقوقعين في هذا المجتمع، لا يعرفون من البلد إلاّ أبنيةً معدودةً "المنزل والمدرسة العربية، منازل الأصدقاء العرب وأماكن التسوق الأسبوعي" لذلك ألقى باللائمة علىَّ حين طلبت مشورته واتهمني باني أفسدت أولادي وعليَّ أن أدفع الثمن في الدنيا والآخرة!!

ابنتي "سارة" يخابرها صديقها في المدرسة وأنا بنفسي من يرد على الهاتف، ويدعو "سارة" إلى محادثة صديقها الشاب، ورغم انسلاخي عن الكثير من العادات والتقاليد، ورغم تغيير جلدتي، ورغم انفتاحي، فمازالت شرقيتي وحميتي تداعبني بقسوة، ومازالت أفكاري ترفض الكثير من الوقائع التي تحدث أمامي وربما هذا ما يدفعني إلى إعادة حساباتي كل صباح باحثاً عن جوهري الأصلي.

فأنا أتنصَّت إلى حديث سارة مع صديقها والكلمات تنهش من أعصابي، وتخيلاتي تقفز كحصان سارح في السهوب. وأجد نفسي مضطراً للتحقيق مع ابنتي متصنعاً اللامبالاة ناصحاً إياها بمتابعة الدراسة والاهتمام بالحصول على شهادتها الدراسية أولاً متمنياً متأملاً ألاَّ تكون أفكاري السوداء واقعاً.

الهروب والعودة إلى الجذور هو الحل لحماية ابنتي، ولكن هل ترضى سارة بالاغتراب؟ وهل ستقبل بواقع جديد؟ أم أني سأخسرها إلى الأبد؟

أسئلة كثيرة تحتاج إلى أجوبتها.

ما هو الحل؟ ومن هو المخطئ؟ وماذا أفعل؟

ذكرياتي الصباحية تدق الباب دون استئذان يفرضها واقع معاش وصراع محتدم.

أتيت هنا وحققت الحلم بأن أكون حرّاً.

حققت أحلامي واقتنيت سيارة. ورافقت أجمل الفتيات وتزوجت أكثرهم ذكاءً وها أنا اليوم أبحث لابنتي عن خلاص من أرض أحلامي!!

أتساءل... هل تخلصت من سمات شخصيتي الشرقية كما ادعيت؟ أم أني ما زلت أعتقد أني فرد لا يخطئ، صالح لكل زمان ومكان، عارف ملم بكل الأمور وأن جميع من حولي أقل مني كفاءة وذكاءً ولذلك فهم يتآمرون ضدي!

❖ ❖ ❖ ❖

# مدينة الأشباح..

## لقاء

القارئ أناني
يبحث عن اللقاء مع نفسه داخل النصوص
الناس اعتادوا على اللقاء
في القطار
وفي المطار
وفي قاعات الانتظار
وأنا التقيت بها في دروب العمر

## انحياز

جميعنا منحازون إلى فكرة
إلى نادٍ
إلى دين
إلى حب
أنا منحاز إليها

## حياتي

كوميض يشرق الصباح
يحترق بأشعة الشمس
ويتقد ظهراً جمراً
لينطفئ كالرماد في المساء
حياتي معها استقبال ووداع

## هي...

نعبر منطقة اللا حدود
محملين باللا حقيقة
نحاول أن نتجنب العدم
ونبقى في الحقيقة المطلقة
هي.

## مدينة الأشباح

في مدينة الأشباح
كل شيء مباح
قارب الحلم يعبر الليالي مبللاً بالحزن

ونداء عميق يصهل في جوفي
طحالب الضياع تنمو في العقل
وظلال العمر تتبعثر على الأرصفة
والحب يغرد على أغصان العمر
ويورق ربيعاً أخضر
تسقط أوراقه عند أعتاب الخريف
بعد أن أنهكها فصل الصيف الحار
أوراق حبها دائمة الاخضرار

## ألف صرخة

الأنوثة فيها تصرخ نهدين نافرَين
يرفرفان اضطراباً كالحمامات
أرخى سدوله عليهما شعر كليل
ويحيط بهن ذراعان
ترسمان قدّاً ميّاساً كحبّات اللّوز
يتطاير كفراشة ملونة
تهيم في ممالك الألوان
ويلثم الزهور لتروي شفتاها العسلاً
وأنا أرعى وجودي في حقولها
وعمري ألف صرخة... أحبك

# وحيدة

أغمضت ليل عينيها
وتوسدت جسدي
وقالت لي:
ما أشد حزن نصوصك؟
لا أجد في نصوصك إلا قبراً فاغراً فمه!
يستعد لالتهامي
قلت لها: قدرتي على الحزن تسعدني أحياناً
لأنها تخبرني بأني مازلت بشراً
ولم تتبلّد لدي الأحاسيس والمشاعر
والإنسان الكامن في داخلي لا يزال حياً
الحزن يا حبيبتي مشاعر أنانية
فنحن نحزن على أنفسنا
على مصيرنا
ونتمنى لو أن الزمن يتوقف
قبل أن نفقد الأشياء
نحن أرواح تقمصت أجسادها
نفخة إلهية سماوية
سكنت جسداً من طين ارضي
ولا يلبث أن يعود كل شيء إلى أصله يوماً ما
كتبت لها وأنا أعرف أني كاذب
"لن نفترق أبداً"
واليوم أتركها وحيدة

# هجرة

رغم اضطهاد الحب
واعتقال الأحاسيس
ومراقبة العواطف أحبها
فجأة ظهرت في حياته وأحبها
ومن أبواب المجهول إلى عينيها
كانت أولى رحلاته
عيناها جزر لجأت إليها أحلامه في لياليه الممطرة
كتب لها:
سيدتي الشمس أنا زهرة عباد الشمس فلا تغيبي
شيئان يسرقهما القمر
الضوء من سيقان الأشجار
ويوم آخر من حياتي بدونك
قرر الهجرة الهروب
الرحيل من شباكها
ما أسهل الهروب وما أصعب المواجهة
كطائر مهاجر سافر بعيداً عن أرض المولد
قطع المسافات طوى الأزمنة
حام حول الأمكنة
استقر اكتشف لذة طعم الاستقرار
ومن ثم حزم أمتعته مغادراً إلى مجهول جديد

## الحق...

الذكاء يحتاج إلى منصب لكي يصبح سيداً
العز والجاه مارد مصباح علاء الدين السحري
كلمة متنفذ كفيلة بحل أصعب المشاكل
وربما إنقاذ محكوم من حبل المشنقة ،
كل ما يجب أن يتقنه المرء هو تقبيل الأيدي
ورغم أن عماد على استعداد تام لهذا العمل
بعيداً عمّا يسمى مجازاً بالكرامة
فحين تمكن من الوصول إلى أحدهم
ليسأله بعد تقبيل يده
أليس من حقي أن أحيا بسعادة وبكرامة؟
ليجيبه من يسأله
وهل من حقك أن تحيا؟.

## تصدير...

الفقر عدو الجميع
يقتل الناس جوعاً
ويهدم البيوت على أصحابها
وينسي صاحب الحق حجته
ويبعد الفطن عن فطنته
فالفطنة تحتاج إلى صوت لكي تصبح بوقاً

وهم يكافحون الفقر
فقط ليبقى بعيداً عنهم
لذلك يعيدون تصديره
إلى غيرهم من عباد الله
ويتمتعون بتجارتهم!

## إرهابي

العالمُ يعُجُّ بالحمقى
القادرين على رؤية حماقات الآخرين بشكل رائع
والتحدث عنها بشكل أروع
لكنهم يعجزون عن رؤية حماقاتهم الخاصة
وإن رأَوْها أحجموا عن الحديثِ عنها!
لذلك فقد وجد عماد المبرر لنفسه
ليفخخ عنابر الكلمات
وليفجر أجساد الكتب
ومن ثم انتقل إلى العمارات
والمطاعم
ومترو الأنفاق
لم يلتفت عماد مرةً واحدةً إلى الخلف
لأنه لم يخطُ خطوةً واحدة إلى الأمام

❖ ❖ ❖ ❖

# قالوا...

*يلمس* القارئ لقصص مازن رفاعي أبعاد الحياة بكل تلاوينها وهي تتحول من اللحظة المعاشة إلى لحظة مكتوبة تتعدد فيها بنيات الحكي والكلام، فتارة تأخذك إلى عالم الوجدان المتسم بحالة من الوصف المباشر والمشهدية التصويرية السيناريوهاتية والرومانسية، وتارةً تأخذك إلى أبعاد المعنى خاصة عندما تتكاثف الغربة والعزلة والحيرة والأسئلة والحياة مكثّفةً نسقها الوجداني بنسقها الفني المختزل للجملة القصصية، المنقطع عن الواقع إلى المخيلة أو الحلم.

يطل الكاتب من بين الضمائر بهيئة الأنا الساردة المتكلمة غالباً، والعالمة بكل شيء، ومن خلال هذه الزاوية الرؤيوية للأنا الساردة نكتشف كيف تتداعى أصوات الضمائر الأخرى بهيئة الهو والهي والهم والنحن، لتنقلنا إلى عوالم من التضاد النفسي والمكاني والمجتمعي، وتطرح المحور الأساسي ما بين ذاكرة الشرق والغرب، حيث البطل الدائم الاغتراب بين الهنا والهناك، يحاول الانفتاح على العالم الآخر بقدر احتماله، ومع ذلك يشعر بغربة هنا وهناك.. هو يتمتع بمبادئ أخلاقية جميلة كالصدق والوفاء والتسامح والميل إلى إيجاد واقع إنساني متناسب مع مبادئه لكنه بين حدث

وحدث، بين قصة وقصة، نرى كيف يخون الواقع مبادئ النقاء، وكيف أن العالم المحيط لا ينفصل عن زمن يمتص السواد أكثر غير فاسح للبياض نزعةً من إشعاع..

هذا ما تعكسه القصص بشكل عام، وما تعكسه قصة (موعد مع الخيانة) و(أبو المجاري) و(حب وحيد الاتجاه) و(في السجن) التي تتسيد فيها الطبائع اللا أخلاقية للبشر كمعيار للزمن المعاصر الذي يتلوى بهيئةٍ زئبقية جارفاً معه أحلام الأبرياء والأنقياء والجادين، شاداً إليه هؤلاء الذين يشبهونه سلوكاً وتفكيراً، طاعناً جهات الضوء بالعتمة المفرطة.

وينتشر الإحساس العميق بالغربة المكانية والروحية والوجودية في قصة (يوم العيد) و(ليلة زفافها) و(عودة سارة) و(ابنتي سارة) كما تتنابك رتابة الحياة وطبيعتها الاستهلاكية في قصة (يوم في العمل).

تحتفي المجموعة بتفاصيل اللحظة الحياتية فتتكتب مع ملامح الشخصيات وصفاتهم الخارجية والنفسية، كما تتكتب من خلال العناصر المكانية الجغرافية، وتضيف إلى شبكتها العلائقية ما يتراوح بين العادي والشعري، بين اليومي والحلمي، ترصد ما يجري في النفوس من خلال رصدها لآثار الأحداث، تطرح سؤالاً هنا، وحكمةً هناك.. تعري الانتهازيين، الطفيليّين، المتسلقين..

وتتعلق بالضوء الداخلي لحالة كلية تجمعها القصص، وأعني حالة الذات الكاتبة وهي تحزم الوحدة الكلية للنصوص من خلال نثارات السيرة الذاتية بكل آلامها وآمالها وصراعاتها المختلفة مع الذات والآخر، وما ينتج عنها من استلاب ورفض وصمت وصراخ..

هل أقصد هي قصص سيرة؟

بلا شك، لا يستطيع الكاتب منا إلا أن ينسى في كتاباته ما هو منا.. ولذلك، شعرت بأن في هذه القصص سيرة من نوع ما، تكتب مجريات الزمن الاغترابي، منطلقة من أنا الرفاعي إلى شخوصه الأخرى المتنوعة بين الحبيبة والابنة والزوجة والصديق ورب العمل والوطن والغربة بكل تداعياتها المتشكلة كذاكرة مشتتة بين الوطن ومكان العيش..

أما نتائجها الحتمية فهي الانتماء للهواء، فلا الجذور تنقطع، ولا الأغصان تمسك بالسماء! وأكثر ما تبدو هذه الجوانيات في قصة (وفاة والدي) و(رسالة أم لولدها).

في هاتين القصتين يعلو البوح والنشيج واختزال الموت والحياة.. وتتحول درامية الحدث وصعود التفاصيل إلى حالة متنامية تبدو أوضح في قصة (رسالة أم لولدها) خاصة مع تحول شخصية الأم من مجرد وجود ورحم وذكرى إلى حالة من الفقد والضياع والتأنيب للذات والعودة بطريقة (فلاشباكية) إلى الأيام الماضية..

هذه العودة تتحايث مع فنية إدخال رسالة الأم كتقنية إلى نسيج القصة بمعانيها وتعاليمها ووصاياها، فنشعر بأن كلمات الأم اختزلت فلسفة الوجود بطريقة أمّ أسطورية تخرج من الذاكرة واللحظة المكتوبة والقصة لتترك أثر روحها باحثةً في أبنائها عن البقاء الأشد جمالاً، باحثةً عن الإنسان الحقيقي الذي يغلب الموت بروحه البيضاء..

ينضم صوتها وصورتها إلى صوت الراوي كما تنضم أصوات إخوته والآخرين الصادرة عن مقول جمعي: "قالوا لي إنها كانت تبتسم موتاً كما لو أنها نائمة وتحلم أحلامها

السعيدة. أحلام رؤيتك ومعانقتك وضمك كما كانت تفعل حين ربتك صغيراً"..

تتناوب الضمائر سرد هذه القصة، فيعلو صوت الأم تاركاً الصمت والحزن للولد، ويعلو صوت الولد تاركاً لصمته المزيد من الإمعان في صوت الأمّ الماضي الحاضر، ولا يبقى في القصة سوى تلك المشهديات وهي تجمع ما تفكك بين المونولوغ والديالوغ، بين الانفعالات والحلم والذكريات والمسافة ببعديها الزماني والمكاني..

أخيراً، ما يؤخذ على القصص المباشرة والوصف العادي، ولولاهما لكانت النصوص قد أضافت بعداً آخر للفنيات التي ذكرناها، مثل:

تناوب الضمائر، المحايثة الزمنية للأصوات، تداخلات الديالوغ والمونولوغ، إسقاطات الحياة على الموت، الحب على الخيانة، النقاء على النفاق من خلال إسقاطات الوصف الخلاق والتقنيات الأخرى من رسائل، وذاكرة، وأحلام، وإحالة على العوالم النفسية والعوامل القصصية الساعية إلى هذه المجموعة الأولى للكاتب.

ترى من أية غربة تنطلق الحياة، وإلى أية غربة تعود؟

**غالية خوجة**

**شاعرة وأديبة سورية**

*للغربة*.. للوطن.. للضياع في ممرات المتاهة التي ازدانت بالأحلام التي رصعها فوق مقاعد الدراسة حيث كان يحث الخُطا نحو جسر العبور الموصل للغرب السعيد أو هكذا كان يظن ورفاقه في المدرسة.

ها هي الغربة الباردة تسكنه، فيبدأ بالبحث عن نوافذ تطل على الوطن الذي كان ومازال يسكن أحلامه مازن رفاعي في مجموعته القصصية (الهجرة إلى شواطئ الحقيقة) يحاول الإمساك بتلابيب الغربة القاسية، الغربة ذات البريق الساحر الذي جذبه نحو شواطئ مجهولة لأناس مجهولين لا نشبههم في شيء سوى أننا بشر مثلهم.

كتب مازن مجموعته بحبر آلامه وآلام أمه ووطنه والعيد الغائب إلا من الأذهان والذكريات.

كتب الرفاعي مجموعته بحبر الشوق.. رصد من خلال مجموعة قصصه أحلام العربي حين يظن أن الجنة خلف البحار الأوربية المنتظرة بواخر العابرين إلى ضفافها فتكسرهم الهزيمة والحسرة على وطن أضاعهم وأضاعوه، بينما بقيت المبادئ والمثل تنتظر على الضفة الأخرى عودتهم.

مازن الرفاعي كاتب يرصد الحياة بذهن متقد وعقلية متنورة جعلته يحث الخُطا نحو كتابة هذه المجموعة النازفة حزناً وألماً ومسراتٍ مشوبةً بالحذر.

**ماجدولين الرفاعي**

**كاتبة وصحفية سورية**

يقدم لنا الكاتب مازن رفاعي قصص سردية لا تستند إلى الحوار أو المشهد كعنصري بناء رئيسيين، بل تعتمد على لغة سرد بليغة جميلة التصاوير، مكثفة لكنها مؤثرة..

ولعل هذه السمات هي ما جعل من الممكن التلميح إلى بعض المعاني الحسية التي تخدم الفكرة بدون ابتذال وبدون غمس القارئ فيها.

بخلاف هذا، القضية التي تطرحها القصص هامة، فهي تعطينا فكرة عن كيف يمكن أن تكون النهاية عندما يتنازل الرجل عن غيرته وقيمه متخاذلاً أمام عواطفه، ففي موعد مع الخيانة يغفر الخيانة باسم الحب وإني لأظن أن الغريزة هي سبب هذا الصفح وليس الحب..

شكراً للكاتب على هذا العمل المتميز

**محمد حمدي غانم**

**كاتب من مصر**

❖ ❖ ❖ ❖

لقد كانت قصصك رائعةً، حبكت القصّص بروعة، وأحسنت صياغتها، وقدت الأحداث والكلمات بحسن تصوّر ودقّة. وخاصةً قصّة موعد مع الخيانة فهي مؤلمة، أحسنت تصويرها.

**أحمد الفاخري**

**كاتب من ليبيا**

أسلوبك رائع وكأنه عقد من قطرات الندى النقية الصافية ومعجم رقيق وتركيبات موسيقية جميلة وأسلوب جذاب يثير القارئ و لا يشعره بالملل وهذا مهم جدا في القصة. لكن أشعر أن الصراع في قصصك لم يصل إلى ذروة وأن الحلقات تضيق وتنكسر بسرعة ولا تعطينا الفرصة لنستمتع أكثر.

كانت عبارة عن ومضة سريعة جميلة ولكنها لم تروِ ظمأنا، كنا في ظمأ أكثر لما تملكه من إمكانيات في الكتابة لكنه إجمالاً عمل جميل وصور وتشبيهات رائعة مبتكرة وبالتوفيق إن شاء الله.

**أمير رمزي**

**مصر**

❖ ❖ ❖ ❖

أشكرك على المنهجية فعلاً أعجبتني فعلاً المنهجية هي الأساس لنجاح العمل القصصي.

**اميل فرحات**

**كاتب من لبنان**

القصص تتميز بالتكثيف العالي وكتبت بوعي شديد كأنها وجبة سريعة شهية المذاق الأدبي وملفتة للنظر تراها كأنها مقتطفة من الروح وتنطلق من حالة تضخم داخلي حساس. يكاد البطل المطلق يغيب عن أحداثها فهناك في كل قصة أبطالها يخرجون من صمت الواقع يحركون ما حولهم ويقص الجميع حواديتهم.

**وليد عنزي**

**كاتب وطبيب مقيم في فرنسا**

❖ ❖ ❖ ❖

تعجبني في قصصك واقعيتها.. ففي حالة بطل قصّتيك "عودة سارة" و"ابنتي سارة" يبرز تخليه عن الكثير من عاداته.. محاولةً منه للانتماء للمجتمع الجديد الذي اختار أن يكون جزءاً منه.. أما رفضه غير الظاهر لبعض تصرفات ابنته.. فهو تعبير عن الصراع الداخلي بين الأصيل والدخيل.. فكل محاولات الانتماء كانت ظاهرية أما في دواخله بقى ذلك الشرقي المعتز بمشرقيته تحياتي.

**عبد الرحمن جاسم**

**كاتب من قطر**

أجل، هي قصص مؤلمة بواقعيتها التي نادرًا ما يعترف بها مغترب!

الاغتراب يخلق حالةً من الازدواجية والمعاناة التي لم يكن المغترب قد حسب لها حسابًا أثناء غوصه في حلم الهجرة والتمتع بما أجاد كاتبنا في وصفه من طريقة جديدة للحياة.

ولعل أهم ما في الأمر غيرة العرب على بناتهم وعدم تقبلهم للـ"بوي فرِيند" وقد أصاب الكاتب الهدف في هذه التفاصيل تلميحاً فلم يدخل في تفاصيل هي قاتلة للرجل العربي. ثم إن الأولاد لن يقبلوا بالعودة إلى جذوره التي عادة ما يبدأ الحنين لها في مرحلة عمرية ما. لي مع هذا الشأن حكايات أكتفي بما أورده الكاتب منها كيلا أفسد حكايته. تقديري ودعائي.

**مكي النزال**

**كاتب من العراق**

❖ ❖ ❖ ❖

الأخ مازن: قرأت النصوص. أحييك. هناك شاعرية متدفقة. النص جميل ويستحق النشر لأنه يحتوي الجديد. تتناول إشكاليات الغربة، لنا كعرب وهذا موضوع حيوي وتطرحها بشكل يثير الاهتمام. اقترح عنوان: (عربي في المهجر)، ولك الخيار. أيضاً زوجتي الأديبة المغربية زينب وتشترك معي في استحسان النصوص. تحياتي ومبروك.

**صلاح محاميد**

**شاعر وكاتب فلسطيني في ايطاليا**

في هذا العمل تتجلى المقدمة اللا جزافية سحرها في الكم الدلالي العميق؛ العناصر الصورية التي تنطلق من مرجع أنثوي، من صور خصوبية /الشتاء، المطر، البلل، الباب/، تدخل في صراع غريب مع صور ذكورية /الغيوم، الداكن/، و يلاحظ هذا التميز في تغليب مبدئي للصور الأنثوية، لا إعتداداً بالشخصية المحورية داخل النص، لأن النص يقوم على الرحلة في التأمل الشارد.

**طارق الطوزي**

**كاتب من تونس**

❖ ❖ ❖ ❖

الفنان لا يتميز بقدرته على قول كل شيء، بل يتميز بقدرته على بناء سياقات لا تحتمل كل قول. قد يكون بالإمكان الذهاب بالإحالات إلى أقصى ما يمكن أن يبيحه المنطق العقلي، أو تبيحه مخيلة جامحة تهفو إلى معانقة كل السياقات الممكنة. إلا أن ذلك لا يمكن أن يصنع تجربة فنية قابلة للعزل باعتبارها ظاهرة يمكن التعرف عليها بصفتها تلك. إن الفن هو أسر للقوى الرمزية الجامحة وترويضها من خلال تسيجها بسياقات تمنحها هويةً وموقعاً في الوجدان والتاريخ.

**د. سعيد بنكراد**

# منشورات دار تالة

| اسم الكتاب | المؤلف | التصنيف |
|---|---|---|
| الحنين | حديبي عيسى | نصوص نثرية |
| كم كنا رائعين معاً | أيمن دراوشة | قصص |
| حوار على قارعة العشق | خليل النابلسي | قصص |
| النظام السياسي في الفكر العربي الإسلامي | صالح عوض | دراسة |
| عندما أضيع في هواجسي | حوراء حويلة | نصوص نثرية |
| تداعيات شجيرة الزيزفون | ماجدولين الرفاعي | نصوص أدبية |
| العنقاء | عضيد شياع عواد | رواية |
| رقصة فوق خراب الوطن | رشا فاضل | نصوص نثرية |
| المشنقة | عبد العزيز غوردو | رواية |
| جاليريا | ناصر فالح الريماوي | قصص |
| قصائد ممطرة | د. ماجدة غضبان | شعر |
| البحث عن نيرمانا | شريف الشافعي | شعر |
| الاقتصاد في الإسلام | يونس شلبي | دراسة |
| الرؤية القلقة | مؤيد عبد القادر | دراسة |
| من وطن القباب الزرق | مؤيد عبد القادر | سيرة حياة |
| غِبْطَةُ النَّحْتِ<br>عَلَىَ أقْدامِ الرِّيَاح | دانية بقسماطي | شعر |

| | | |
|---|---|---|
| ديوان الشاعرة تركية غبرة | محمد جابر | شعر |
| نصوص خارجة عن القانون | ماجدولين الرفاعي | قصص |
| قبلات على الجانب الآخر | ماجدولين الرفاعي | قصص |
| لي ما ليس للبحر | رائدة جرجيس | شعر |
| تطفل على السرد | حميد سعيد | دراسة نقدية |
| الحل الحضاري للقضية الفلسطينية | صالح عوض | رؤية سياسية |
| الأشجار تروي البطولات | نهى الدباغ | قصص للفتيان |
| تحولات القصيدة | سليم النجار | دراسة نقدية |
| عين أنف وصوت!! | عائدة محمد نادر | قصص |
| الرئيس عبد السلام عارف | د. صبحي ناظم | سيرة حياة |
| مرثيّة لزمن الهباء... | ماجدولين الرفاعي | قصص |
| مغامرات تالة ومشاكسات أخرى | ماجدولين الرفاعي | قصص للأطفال |
| أنشودة النقيق | راهيم حساوي | مسرحية |
| مثلث العشق والتيه | أيسر رضوان | رواية |

❖ ❖ ❖ ❖

# الفهرس


| | |
|---|---|
| العودة إلى شواطئ الحقيقة. | ٧ |
| في المعتقل الصحّي. | ١٧ |
| أسطورة الحبّ الأزلي. | ٢٣ |
| السّرير الأبيض. | ٢٧ |
| أصدقائي الألدّاء. | ٢٩ |
| ضحيّة أمّ مجرمة. | ٣٣ |
| فتاة بوخارست العربيّة. | ٣٧ |
| سيّدتي الشّمس...<br>أنا زهرة عبّاد الشّمس... فلا تغيبي. | ٤٧ |
| موعد مع الخيانة. | ٥٧ |
| أبو المجاري. | ٦١ |
| يوم العيد. | ٦٥ |
| يوم في العمل. | ٦٩ |
| رسالة أم لولدها. | ٧٣ |
| في السّجن. | ٧٩ |
| عودة سارة. | ٨٣ |
| حب وحيد الاتّجاه. | ٨٧ |
| ليلة زفافها. | ٩١ |
| وفاة والدي. | ٩٥ |
| في المشفى. | ٩٩ |
| ابنتي سارة. | ١٠٣ |

| | |
|---|---|
| مدينة الأشباح: | |
| لقاء.. | ١٠٧ |
| انحياز.. | ١٠٧ |
| حياتي.. | ١٠٨ |
| هي.. | ١٠٨ |
| مدينة الأشباح.. | ١٠٨ |
| ألف صرخة.. | ١٠٩ |
| وحيدة.. | ١١٠ |
| هجرة.. | ١١١ |
| الحق.. | ١١٢ |
| تصدير.. | ١١٢ |
| إرهابي.. | ١١٣ |
| قالوا... | |
| - غالية خوجة: شاعرة وأديبة سوريّة. | ١١٥ |
| - ماجدولين الرفاعي: كاتبة وصحفيّة سوريّة. | ١١٩ |
| - محمد حمدي غانم: كاتب من مصر. | ١٢٠ |
| - أحمد الفاخري: كاتب من ليبيا. | ١٢٠ |
| - أمير رمزي: مصر. | ١٢١ |
| - اميل فرحات: كاتبة من مصر | ١٢١ |
| - وليد عنزي: كاتب وطبيب مقيم في فرنسا. | ١٢٢ |
| - عبد الرحمن جاسم: كاتب من قطر. | ١٢٢ |
| - مكي النزّال: كاتب من العراق. | ١٢٣ |
| - صلاح محاميد: شاعر وكاتب فلسطيني في إيطاليا. | ١٢٣ |
| - طارق الطوزي: كاتب من تونس. | ١٢٤ |
| - د. سعيد بنكراد. | ١٢٤ |


❖ ❖ ❖ ❖

تاريخان مميزان في غربته :

الأول هو تاريخ حصوله على تأشيرة الدخول إلى رومانيا ، والآخر هو حين سيعود منها محملا في تابوت . في طرق الهجرة إلى الشمال ، والعودة إلى الجنوب ، هناك الكثير من الأحلام والانتماءات المدفونة . وعلى قارعة تلك الطرقات ، تغيرت حياته وحياة الكثير من أصدقائه ، وربما حياة مئات الآلوف من الشباب المهاجر . في الوطن كان السفر إلى الخارج حلما له مذاق مميز ، ونكهة خاصة ، تطعم جلساته مع الأصدقاء حين كانوا على مقاعد الدراسة . الهجرة بالنسبة لهم كانت طموحا ، تحديا، هروبا ، أملا ، وخروجا عن المألوف .

اليوم تفصله سنوات طويلة عن هذا الحلم الذي تحقق له يوما ، وكانت السعادة والزهو والأمل حينها تفرش له طريق الغربة بالورود والرياحين .

المؤلف

للنشر والتوزيع